تشويه الإسلام . . صناعة قديمة !

فى دراسة للمستشرق الألمانى جيرنوت روتر عن (الإسلام والغرب: الجاران المتخاصمان) يقول تحت عنوان (الإسلام.. العدو الوهمى الجديد للغرب).. إن الأمور كانت بسيطة فى أذهان الغرب منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وحتى انهيار الدول الشيوعية، فقد كنا نحن الأخيار الطيبين، أما الآخرون فكانوا دائما هم الأعداء الأشرار. وهكذا كانت صورة (العدو الوهمى) بسيطة وسهلة الفهم. ولكن بعد انهيار المعسكر الشرقى عام ١٩٩٠ أصيبت هذه الصورة عن العدو الوهمى بالتصدع، ثم أصبحت غير صالحة لتبرير ارتفاع الإنفاق العسكرى فى الغرب بالنسبة للقادة العسكريين ومنتجى السلاح والمسئولين السياسيين.. وعندما انقض صدام حسين على الكويت بعد ذلك بشهور قليلة مهددا بذلك - كما قيل- إمدادات الغرب بالنفط، جاء هذا الاعتداء فى الوقت المناسب تماما، وكان التوقيت دقيقا إلى درجة أن البعض لم يشأ أن يصدق أنه حدث مصادفة ليقدم (للعالم المتمدين) عدوا وهميا جديدا هو (الإسلام) وتم تجاهل الحقيقة وهى أن صدام حسين لا يمثل الإسلام، كما أن نوريجا مثلا لا يمثل المسيحية، ولكن مع ذلك تكاملت الأيديولوجية لصورة العدو الجديد..

وفى سنة ١٩٩٣ قدم صمويل هانتجتون - مدير المعهد الشهير للدراسات الاستراتيجية بجامعة هارفاد - نظرية مفادها أن الصدامات العسكرية المستقبلية ستحدث على طول الشريط الواقع بين الحضارات، خاصة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية. وبذلك تم الترويج للصدامات المستقبلية على أنها صدامات لا يمكن تحاشيها، وكان الاستقبال الإيجابى لهذه الدعوى فى وسائل الإعلام الغربية مخيفا حقا، مما يثبت - فى رأى جيرنوت روتر- أن حرب الحضارات التى تنبأ بها كانت قد بدأت بالفعل فى عقول الغربيين من قبل أن يعلن هانتنجتون نظريته !

ويقول المستشرق الألمانى فى دراسته: التى ترجمها الدكتور ثابت عيد الباحث المصرى المقيم فى سويسرا - إن التنافر وعدم التوافق المزعوم بين الفكر الغربى والفكر الإسلامى - من وجهة نظر الغربيين - حقيقة لا ريب فيها، ومن النادر إبراز نقاط الاتفاق بين الإسلام والمسيحية واليهودية التى تفوق نقاط الخلاف بينها، ولا يتحدثون عن أن منشأ الديانات الثلاث هو المنطقة العربية، وأن إبراهيم هو الأب الأول لجميع الأديان، وأن التوحيد هو الجوهر فى الديانات الثلاث، وهى تتفق فى أن الجنة والنار هما جزاء العمل فى الدنيا، ولكن العامل الذى يفرق بين الديانات الثلاث هو اعتقاد كل منها أنه هو الذى يملك الحقيقة المطلقة، والتصورات العدائية المتبادلة لا تتعلق أساسا بخلافات عقائدية، والدليل على ذلك أن التناقض عند كلا الطرفين ليس بين الإسلام والمسيحية، ولكنه بين الإسلام والغرب، وهذا يعنى أن نقطة الانطلاق تتمثل فى كتلتين ثقافيتين تسمى الأولى باسم دينها، وتسمى الثانية باسم موقعها الجغرافى وليس باسم دينها، وهكذا يتم النقاش على مستويين مختلفين، ولذلك لا يتحقق التفاهم بين الطرفين. ويضاف إلى ذلك سوء الفهم كسبب آخر لهذه التصورات العدائية، فكل فريق يعتبر أنه على صواب وأن كل ما يخالف القيم التى يعتنقها خطأ، وفى القرون الوسطى مثلا ظهرت (ملحمة رولاند) وفيها أن العرب يعبدون محمدا ﷺ وابوللو، وتيرفاجانت، أى إن المسلمين لديهم الثالوث. والتهمة الثانية التى كانت رائجة فى الغرب فى القرون الوسطى هى أن المسلمين يعبدون الله، ويعبدون معه (فينوس) إلهة الحب عند الرومان، وكان الدليل على ذلك عندهم أن المسلمين جعلوا يوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع، ويوم الجمعة فى القرون الوسطى كان يوم (فينوس)، بينما كان يوم الأحد يوم الإله. وهكذا كان الجهل من أكبر أسباب سوء الفهم والعداوة..

ويقول المستشرق الألمانى جيرنوت روتر: إن الجهل وقصور الفهم هما أيضا ما يجعل الغربيين الآن يعتبرون الإسلام مساويا للإرهاب والتطرف والعنف. ولا يتفهم الغربيون التيارات المختلفة داخل الإسلام، مثل التيار التقليدى والتيار الإصلاحى والتيار الصوفى، وتيار المثقفين الذين يؤمنون بالإسلام كديانة.. وهم مسلمو الثقافة فحسب. مثلما يشعر بعض الغربيين المنكرين لوجود الله بانتمائهم إلى الثقافة الغربية المسيحية، والغربيون يركزون رؤيتهم على المتطرفين الذين

يسمون أنفسهم (الإسلاميين) ويتجاهلون وجود المسلمين المسالمين، وهذا التجاهل يتم لأنه يخدم المصالح الاقتصادية والسياسية للغرب !..

وحين ينتقل جيرنوت روتر بعد ذلك إلى الكتب التى تدرس للتلاميذ فى ألمانيا عن الإسلام.. يقول: إن كتب التاريخ تتوقف فقط عند ثلاثة أحداث عسكرية حين تتناول موضوع اتصال الغرب المسيحى بالعالم الإسلامى، أولها معركة (بلاط الشهداء) المسماة موقعة (تور وبوايتيه) سنة ٧٣٢ التى أنقذ فيها شارل مارتل الغرب - كما يقال - من الاجتياح الإسلامى، ومازال تمجيد هذا الحدث التاريخى يمثل جزءا من المعارف الأساسية فى الغرب، بالرغم من أن هذه الحملة من وجهة نظر المسلمين عديمة الأهمية من الناحية الاستراتيجية العسكرية.. والحدث الثانى الذى يدرسه التلاميذ هو الحملات الصليبية، ومع أن الغرب لم يعد يمجدها كعمل بطولى عظيم، إلا أن الحسرة على فقدان القدس تظهر تلميحا فى كل ما يقرؤه المرء أو يسمعه عن هذا الموضوع، ويتم تمجيد الأمير أويجن (الفارس النبيل) كمنقذ للغرب والمسيحية، لأنه هزم الأتراك، وكل ذلك يجرى تحت الشعار الذى يبدو أنه لا يمكن استئصاله وهو أن مقصد الإسلام الوحيد هو التوسع بالغزو والحرب وأن الدول التى كان حكامها مسلمين كان هدفها التوسع. وتمثل فكرة (الحديد والنار) فكرة نمطية ثابتة فى إطار المشاعر العدائية تجاه الإسلام- وبذلك فإن الإسلام والمسلمين - وفقا لهذه الفكرة - يتسمون بالعنف والعدوانية بطبيعتهم، وبالتالى فهم يمثلون تهديدا للحضارة الغربية، ولم يتغير شىء من هذه الصورة منذ القرون الوسطى برغم كل الخبرات التاريخية.

ويقول المستشرق الألمانى: إنه إذا كان الغربيون قد استمتعوا فى ذلك الوقت بتصوير محمد ﷺ كوحش شيطانى مخيف، وبالروايات التى تصف المسلمين وهم يقطعون أطراف الصليبيين وهم أحياء، وينزعون أحشاءهم من أجسامهم. فقد احتل مكانها اليوم كتب مثل (سيف الله) و(سيف الإسلام) و(السيف الأخضر).. إلخ.. ويأتى دائما الحديث عن (مشاعر الجماهير الإسلامية التى لا يمكن التنبؤ بها).. على حد تعبير الصحفى الألمانى شول لاتور، تماما مثل الحديث عن (الرغبة العربية فى تدمير الذات). ويتحدثون عن التاريخ العربى بالقول: بأن

حلم تأسيس وطن عربى كبير تبدد منذ سنة ٦٢٢ ويتحدثون أيضا عن المذابح والاغتيالات وأعمال العنف التى يقوم بها مسلمون.. ويقولون: لقد قضت نشوة القتل والاستشهاد فى مراحل متقطعة على محاولات بناء دولة مستقرة ذات توجهات عقلانية. وتظهر فى كتابات مؤلفين كثيرين مثل جيرهارد كونسلمان وغيره فكرة نمطية أخرى مع العنف هى القول بأن المسلمين عامة والعرب خاصة ليسوا عقلانيين.

ويقول المستشرق الألمانى: إن فكرة الجهاد من مبررات القول فى الغرب بأن الإسلام دين العنف. وقد أعلنت الجماعات الإسلامية المتطرفة الجهاد شعارا لها لإضفاء الشرعية الدينية على أعمالها الإرهابية، ولا يجد العلماء المسلمون منبرا فى الغرب يمكنهم من خلاله توضيح أن الجهاد شرع فى حالة الدفاع عن النفس، وأن يعلنوا رفضهم للإرهاب الذى تقوم به هذه الجماعات ويبينوا أنه لا علاقة له بالإسلام..

ويقول إن العداء المتبادل بين الغرب والمسلمين يستند فى كتابات المتشددين الإسلاميين إلى حقائق تاريخية محددة بداية من الحروب الصليبية ومرورا بالقضاء على المسلمين واليهود فى أسبانيا وطردهم منها، وعبورا بمحاكم التفتيش حتى عصر الاستعمار والانتداب، وانتهاء بتأسيس دولة إسرائيل وسياسة الاقتصاد العالمى التى توصف بأنها استغلالية وإمبريالية، والتى يطبقها الغرب بمساعدة بعض الحكومات فى الشرق الأوسط. كذلك تدخل دول الغرب فى الشئون الداخلية للدول الإسلامية والعربية. وإدعاء الولايات المتحدة بحقها فى الهيمنة على العالم.. كل ذلك يغرس فى المسلمين شعور العداوة، وأضيف إليه أخيرا عمليات التصفية الجسدية للمسلمين التى قام بها الصرب فى البوسنة..

وهكذا يصل المستشرق الألمانى إلى أن المخاوف متبادلة.. مخاوف فى الغرب بأنه مهدد من العالم الإسلامى، ومخاوف فى العالم الإسلامى من التهديد المستمر من الغرب، ولهذا الخوف ما يبرره وهو تهديد حقيقى- كما يقول - تهديد مادى وتهديد ثقافى، والوهمَ الغربى بأن المسلمين لا عقلانيين يقابله وَهْمُ

المتشددين الإسلاميين بانحطاط الغرب أخلاقيا، ويعبر كل من عالج هذه الموضوعات على الجانبين عن الخوف من فقدان الهوية الحضارية..

ويقول المستشرق الألماني: بجانب فكرة عدوانية الإسلام، تحتل مكانة المرأة فى المجتمعات الإسلامية الصدارة فى صورة العدو، وهذه أيضا فكرة نمطية ثابتة تعود جذورها إلى القرون الوسطى، فقد نتج عن التصور الإسلامى عن الجنة على أن فيها الحور العين ذوات البكارة الأبدية.. والحق الشرعى لكل مسلم فى الزواج فى الدنيا من أربع نساء.. فقد ساعد ذلك على تثبيت صورة الإسلام على أنه (الوليد الشهوانى للشيطان) ومحمد (صلى الله عليه وسلم) على أنه (وحش جنسى) وهذا ما كتبه فى نهاية القرن الحادى عشر ايمبريخو رئيس كاتدرائية مدينة ماينتس فى ألمانيا وقال: إن المسلمين يحتفلون بجميع أشكال الزواج التي تحرمها الشريعة الإلهية، ولأنهم جردوا المرأة من حقوقها الطبيعية فإن المرأة المسلمة تسعى إلى ممارسة السحاق مع نظيرتها، ويمارس الرجل اللواط مع مثيله.. بل خلافا للتقاليد يقيم الأخ مع أخته علاقة آثمة، ولا تمانع الأخت المتزوجة أن يكون الشيطان شريكا لزوجها فى لقائها، والأبناء يهتكون عرض أمهم والبنت تغتصب أباها، والشريعة الجديدة - الإسلام - تحلله.

ويعلق المستشرق الألمانى جيرنوت روتر على هذه الكتابات فيقول: إنها كتابات كاذبة وضيعة، أراد أصحابها أن يصرفوا الأنظار عن الأوضاع الموجودة فى الغرب المسيحى، وبما يحدث فى الأديرة.. أما الإسلام فليس فيه مثل تصورات الغرب العدائية، إلا أن لفظ (الحريم) مازال يلعب دورا فى هذا السياق، ولم تغير فكرة الغرب عن تعدد الزوجات فى الإسلام حقيقة أن الزوجة الواحدة هى القاعدة فى العالم الإسلامى والتعدد هو الاستثناء، كذلك لم تتغير فكرة المسلمين عن (الإباحية الجنسية) فى الغرب..

ويضيف المستشرق الألمانى: إن الفكرة النمطية السائدة فى الغرب عن اضطهاد المرأة فى المجتمعات الإسلامية أصبحت راسخة، والحقيقة أن الغرب يريد أن يغطى على وجود (بيوت النساء) المخصصة للزوجات اللاتى يعتدى أزواجهن عليهن فى الغرب المسيحى. وهكذا فإن توظيف وضع المرأة المسلمة فى خلق صورة

مكروهة ومبتذلة للعدو يبدو أنه يهدف إلى صرف الأنظار عما يقابلها من العيوب الذاتية القائمة فى الغرب.

ويضيف: وبالمقابل فإن لدى المتطرفين المسلمين تصورات مغلوطة عن وضع المرأة فى الغرب، فيرون أن المرأة فى الغرب تسير عارية فى الشوارع ولا يفهمون أن هذه حرية شخصية من وجهة نظر الغربيين، ويرون أيضا أن المرأة فى الغرب مستباحة جنسيا، ويشيرون إلى المجلات والأفلام الجنسية كدليل على الانحطاط الأخلاقى فى الغرب، ويتحدثون عن تفكك الأسرة وعزلة الإنسان، وانتشار المخدرات وارتفاع نسبة الانتحار فى أوروبا والولايات المتحدة.. وكما أن الحجاب أصبح فى نظر الغرب رمزا لاضطهاد المرأة فى العالم الإسلامى، فإن الملابس المثيرة للمرأة فى الغرب فى نظر المتشددين الإسلاميين إهانة للمرأة.. وهكذا فإن أيديولوجية كل منهما تجعل كل طرف يتهم الآخر بمعاداة المرأة، بينما يمارسها هو..

ويقول: إن صورة الإسلام فى الغرب بعد انتهاء الحروب الصليبية تعرضت لتحولات.. ففى القرون الوسطى كان السائد احتقار كل ما هو عربى وكل ما هو إسلامى.. وبعد فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وزحف الأتراك نحو أبواب فيينا ظهر سيناريو التهديد الإسلامى مرة أخرى، واعتبر مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) أن الإسلام هو (العدو الخارجى) وأن بابا روما هو (العدو الداخلى)، وعندما جاء عصر التنوير بداية من القرن السابع عشر، ثم عصر الرومانسية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وحتى عام ١٨٣٠، ومع حركة الاستشراق بدا وكأن الغربيين قد تجاوزوا تصوراتهم العدائية تجاه الإسلام. وكتب الفيلسوف الألمانى ليبنتز سنة ١٧١٠ فى كتابه عن نظرية العدل الإلهى يقول: إن محمدا ﷺ لا يبتعد عن القواعد الأساسية للدين وقام أتباعه بنشر دعوته فى أقاصى آسيا وأفريقيا ولم تكن المسيحية قد وصلت إلى هذه المناطق بعد، وقضوا على الخرافات الوثنية التى كانت تتعارض مع المذهب الصادق للتوحيد وخلود الروح.. وبعد ذلك جاء فى ألمانيا قمم الأدب ليسنج الناقد والكاتب المسرحى (١٧٢٩ - ١٧٨١) وديكارت (١٧٨٨ - ١٨٦٦) والشاعر المعروف جوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢) ونظروا إلى

الشرق باحترام، وتحدث جوته عن العرب بحماس، ولكن حماسه فتر عندما تعرض لمحمد ﷺ وقال عنه: إنه نصب حول العرب غلافا دينيا كئيبا، وعرف كيف يحجب عنهم الأمل فى أى تقدم حقيقى. ولكنَّ رأى العامة فى الغرب ظل يحمل الصورة السلبية عن الإسلام والمسلمين، وأكبر دليل على ذلك هو انتشار أعمال الكاتب الشعبى الألمانى كارل ماى (١٨٤٢ - ١٩١٢) الذى طبع فى عقول أجيال كاملة من الناطقين بالألمانية صورة المسلمين على أنهم أشخاص محتالون متجهمون، يتميزون بالوحشية، ولكن ينتصر عليهم (المجاهد فى سبيل المسيح) الذى يسميه كارل ماى فى رواياته (كارا بن نيمسى). وقد امتلأت كتابات كارل ماى بالتعبير عن إحساس الغربيين بالتفوق، وهو إحساس ازداد قوة بعد غزو نابليون لمصر، وساد بعده لدى الأوروبيين الاعتقاد بأنهم ملزمون بالقيام برسالة حضارية فى الشرق .

وفى تحليل لأسباب خوف الغرب من الإسلام يقول جيرنوت روتر: إن الشعور بالتهديد الإسلامى اختفى فى عصر الاحتلال والانتداب الأوروبى للعالم الإسلامى بسبب تفوق الغرب تكنولوجيا وعسكريا. وبالرغم من استمرار هذا التفوق حتى يومنا هذا، فإنه تم إحياء عنصر التهديد فى العقود الأخيرة، ويرجع ذلك إلى أربعة أسباب:

السبب الأول: أن الغرب والكتلة الشرقية سابقا قدما كميات هائلة من الأسلحة الحديثة إلى دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا التى نالت استقلالها، وهذه الأسلحة يخشى الغرب استخدامها ضد أوروبا، أو على الأقل ضد المصالح الأوروبية والأمريكية فى المنطقة، وهذا الفرض قد يكون نظريا، ولكنه يتم الترويج له، كما يتم التهويل فى الحديث عن (القنبلة الذرية الإسلامية) للتخويف من المسلمين.

السبب الثانى: أن أعدادا كبيرة من المسلمين هاجرت ومازالت تهاجر إلى دول الغرب، وقد شجعت الدول الغربية هذه الهجرة فى البداية، حتى أصبح الأتراك فى ألمانيا ومواطنو شمال أفريقيا فى فرنسا هم الأغلبية بين المهاجرين وطالبى اللجوء السياسى، وأدت هذه الزيادة الكبيرة إلى تصاعد موجة العداء نحو

الأجانب، وهو عداء موجه نحو المسلمين فى المقام الأول، ويركز هذا العداء على الرموز الإسلامية وأولها الحجاب..

السبب الثالث: أن العالم الإسلامى يعانى من توترات اجتماعية واقتصادية، كما يعانى من أزمة الهوية الحضارية، ويعانى كذلك من فشل محاولاته لتطبيق الأيديولوجيات الغربية مثل الاشتراكية والقومية، وأدت هذه العوامل إلى إحياء معايير ورموز إسلامية عند طبقات اجتماعية معينة، وكان الخصم فى هذه الحالة هو (الأوساط الحاكمة) فى تلك الدول الإسلامية، وفى مقابل ذلك يشعر الغرب بأنه هو المستهدف من هذا العداء الإسلامى ويتردد فى الغرب التعبير عن الخوف من (التطرف الإسلامى)..

السبب الرابع: أن زوال العدو الشيوعى أيقظ الرغبة فى أوساط معينة فى الغرب لإيجاد (عدو جديد) ولما كانت صورة الإسلام -كعدو- مستترة، أو كامنة فى الغرب منذ ألف سنة على الأقل، فقد كان من السهل أحياؤها..

هكذا تبدو صورة الإسلام والمسلمين فى نظر مستشرق ألمانى حرص على أن يكون موضوعيا فى بحثه، فعرض وجهات النظر المختلفة وكشف لنا حقائق العداء للإسلام فى الغرب، وكان منصفا حين أرجع هذا العداء إلى تعارض المصالح والأهداف بأكثر من تعارض العقائد، وهذه قضية تحتاج إلى دراسة مستقلة..

وللدكتور ثابت عيد ترجمة ممتازة لدراسة أخرى عن صورة الإسلام فى الأدب الألمانى فى العصر الوسيط نقلها عن الألمانية للمفكر الألمانى هوبرت هيركومر، أستاذ الأدب الألمانى بجامعة برن بسويسرا، وهو على العكس من كثير من المفكرين الغربيين لا يحمل عداء للإسلام.. بل إنه ينادى (لن يكون هناك سلام عالمى بدون تحقيق السلام بين الأديان).. وهو يبحث عن أسباب كراهية بعض المستشرقين للإسلام مما جعلهم لا يرون فيه غير العيوب والمساوئ، ويبدأ بحثه من عام ١٠٩٥ حين أعلن البابا أوربا نوس الثانى فى مؤتمر كليرمون الكنائسى قيام الحملة الصليبية الأولى، فأنطلق (جنود المسيح) يهتفون (هذه مشيئة الرب)

فى حملات صليبية متتالية (لتحرير) القدس وفلسطين، وينقل هيركومر عن الأمير السورى أسامة بن منقذ (١٠٩٥ – ١١٨٨) ما كتبه فى مذكراته ومنها:

(.. .. كنت إذا زرت بيت المقدس، دخلت المسجد الأقصى، وكان إلى جانبه مسجد صغير جعله الإفرنج كنيسة، وكان جنود الحراسة أصدقائى يُخْلُون لى ذلك المسجد الصغير أصلى فيه فدخلته يوما، ووقفت للصلاة وكبرت فهجم على واحد من الإفرنج.. إلخ).. وكان هذا الفارس الصليبى الذى التحق لتوه بقوات الاحتلال المسيحية، كان يعتقد أنه لا توجد صلاة إلاّ على الطريقة المسيحية، ولم يتصور إمكانية الصلاة بطريقة أخرى، وقد نشأ هذا الفارس وتربى دينيا فى مجتمع أوروبى مسيحى، فى إطار نظام محدد من المعايير والقيم ويفسر كل شىء بطريقته الخاصة، وله أيضا تقييم ثابت لكل ناحية من نواحى الأرض، فمن المشرق توجد الجنة، كما تقول التوراة والأناجيل، ومن المشرق صعد المسيح إلى السماء، ومن المشرق سيعود المسيح إلى الأرض ليكون القاضى للعالمين، ومن المشرق ينتظر المسيحيون الخلاص، ولهذا السبب نجد أن صحون الكنائس متجهة إلى الشرق، بينما الصلاة عند المسلمين تختلف عن ذلك، ولكن هاجم الفارس الصليبى أسامة بن منقذ وهو يصلى لأنه وجده متجها فى صلاته إلى وجهة أخرى غير الشرق فهو متجه إلى الكعبة التى تقع جنوبا بالنسبة للقدس، ووجده يؤدى الصلاة واقفا ثم راكعا، ثم ساجدا، ثم جالسا، فرأى أن هذه ليست صلاة، لأنه لا يتصور أن هناك صلاة غير الصلاة التى يعرفها هو. .

وهذه هى بداية الفجوة. . الشعور بأنى (أنا) على صواب و (الآخر) على خطأ. وبالتالى فإن الاختلاف يؤدى إلى العداء !

ويشير هوبرت هيركومر إلى أن سر العداء يرجع إلى استنكار كل طرف لثقافة الآخر، وينقل وصف برنارد رئيس دير كليرفو لفرسان المعبد الصليبيين بقوله: إنهم لا يمشطون شعورهم أبدا.. ونادرا ما يستحمون ويظهرون أفظاظا، ويعتليهم الغبار، فإذا أنذرت الحرب يسعون لإثارة الرعب فى قلوب الأعداء وينقضُّون وكأنهم يرددون من المزامير (أبغض مبغضيك يا رب وأمقت من يقاومونك) وهم يعتبرون أعداءهم من الغنم وليسوا من البشر !

هكذا كان الصليبيون يعتبرون المسلمين كفارا، ويقولون عنهم: إنهم (جنس حيوانى حقير) و (كلاب وخنازير) وإن كان فى الغرب أصوات متسامحة لمن هم أكثر اطلاعا على الدين الإسلامى من زعماء الفكر المسيحى، ولكن أصوات المتعصبين والمحرضين كانت هى الطاغية على الأصوات الأخرى المتسامحة..

وعندما جاء الملك الناصر أظهر تسامحا تجاه الغزاة المسيحيين، وأطلق سراح الأسرى، فأرسل إليه البابا جريجور السابع خطاب شكر ذكر فيه أن (الإله الواحد يؤمن به كل منا، وإن كنا نفعل ذلك بطريقة مختلفة، ونحن نسبح بحمده يوميا، ونعبده كخالق ومسير للكون)، وكان هذا الخطاب من البابا يبدو وكأنه معجزة، حتى إن الصليبيين - جنودا وضباطا - رفضوا الاعتراف بأنهم يواجهون إحدى ديانات التوحيد القريبة جدا من ديانتهم فى الإقرار بإله واحد، وبالصلوات اليومية، والصيام، والزكاة، فقد كانت معرفة الصليبيين بالقرآن محدودة جدا- صحيح أن أول ترجمة لمعانى القرآن ظهرت سنة ١١٤٣ بقلم روبرت الكيتونى، ولكن الأوربيين كانوا يريدون توظيف ترجمة معانى القرآن للطعن فى الإسلام، وكان روبرت الكيتونى الإنجليزى الذى يعيش فى مدينة طليطلة الأسبانية يترجم تراث المسلمين فى الهندسة والفلك من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية وأنجز هذا المشروع الكبير بتكليف من رئيس دير مدينة كلونى - بطرس المبجل - واشترك فى هذا المشروع مسلم اسمه محمد، ولاشك أن هذه الترجمة الدقيقة لمعانى القرآن قد أظهرت للغرب اللاتينى أوجه الاتفاق بين القرآن والإنجيل، خاصة ما جاء فى القرآن عن سيدنا إبراهيم، وسيدنا عيسى، والسيدة مريم البتول، ومع ذلك لم يفكر أحد فى ذلك الوقت فى التوصل إلى حد أدنى من الاتفاق والتفاهم بين المسلمين والمسيحيين على أساس كتابيهما السماويين، ولكن على العكس من ذلك استغلت ترجمة روبرت الكيتونى لمعانى القرآن إلى اللاتينية للطعن فى الإسلام على مدى قرون طويلة..

وجاء مارتن لوثر مؤسس الكنيسة البروتستانتية الإصلاحية، وتدخل لإلغاء قرار أصدرته بلدية مدينة بازل بحظر نشر ترجمة معانى القرآن، وكان السبب فى طلب مارتن لوثر نشر هذه الترجمة، كما أعلن ذلك بنفسه (لقد استيقنت بأنه

لا يمكن عمل شيء أكثر إزعاجا لمحمد ﷺ وللأتراك، ولا أشد ضررا لهم من جميع أنواع الأسلحة، من ترجمة قرآنهم، ونشره بين المسيحيين، عندئذ سيتضح لهم أى كتاب بغيض وفظيع وملعون هذا القرآن، الملىء بالأكاذيب والخرافات)..

مارتن لوثر مؤسس المذهب البروتستانتى لم يكتف بذلك، ولكنه وصف النبى ﷺ بأنه (خادم العاهرات وصائد المومسات) وكان يقول: (أرى أن القساوسة عليهم أن يخطبوا الآن أمام الشعب عن فظائع محمد حتى يزداد المسيحيون عداء له، ويقوى إيمانهم بالمسيحية ولتتضاعف جسارتهم وبسالتهم فى الحرب، ويضحوا بأموالهم وأنفسهم)..

يقول هوبرت هيركومر: إن موعظة كهذه كان من شأنها أن تؤثر على المسيحى بأكثر من طبول الحرب.. بل تمنحه قلب أسد حقيقى فى ساحة القتال.

ويقول: إن المتعصبين المسيحيين كانوا يتهمون الإسلام بالزندقة، وكان ذلك سهلا عليهم، ويشيرون إلى آيتين فى القرآن هما الآيتان ١٧١ و١٧٢ من سورة النساء الرافضتان لعقيدة التثليث المسيحية، ولكن زعماء الكنيسة كانوا قد قرروا فى اجتماع (نيكيا) سنة ٣٢٥م أن الابن والأب شىء واحد، وبعد هذا القرار كان كل من يتجرأ على التشكيك فى هذا المذهب الملزم إلى الأبد يستبعد فورا من الكنيسة الكاثوليكية، ويصير معرضا لغضب الله.

ويقول أيضا: إن المسيحيين - فى ذلك العصر - اعتبروا من سماه المسلمون نبيا، وخاتما لسلسلة الأنبياء التى بدأت بآدم، اعتبروه رجلا عاش حياة داعرة، ولم يتورع وذاع ذلك بين المسيحيين فى أوروبا المتعطشين للتوسع والانتصار، عن طريق خلق الأكاذيب وترويجها، هذه الأكاذيب التى نتجت عن أساطير عدوانية وهمية. بل إن بعض الأوربيين ادعوا أن رسول الإسلام ﷺ كان فى الأصل كاردينالا كاثوليكيا تجاهلته الكنيسة فى انتخابات البابا فقام بتأسيس طائفة ملحدة فى الشرق انتقاما من الكنيسة، واعتبرت أوروبا المسيحية فى القرون الوسطى أن محمدًا ﷺ المرتد الأكبر عن المسيحية الذى يتحمل الوزر عن انفصال نصف البشرية عن المسيحية.

إلى هذا الحد كان الاتجاه العدائى القائم على الاختلاق وقد كان فى الأصل لأسباب سياسية واستعمارية توسعية يكتسى بثوب عقائدى يعادى الإسلام دون محاولة جادة لفهم حقيقة الإسلام ورسول الإسلام ﷺ. وطبعا كان المسلمون فى غياهب الجهل فلم يعلموا بكل ما كان يقال فى الغرب عن دينهم ورسوله ﷺ.

ويشير هيركومر إلى ما كتبه دانتى وهو يصف الجحيم فجعل الرسول ﷺ فى الحفرة التاسعة فى ثامن حلقة من حلقات جهنم، ومعه على بن أبى طالب، ويضيف المفكر الألمانى أن من غرائب الأوهام المسيحية الكاذبة عن الإسلام اتهام المسلمين بعبادة الأصنام، وتذكر ملحمة رولاند الفرنسية القديمة (حوالى سنة ١١٠٠م) أسماء هذه الأصنام: أبوللن، وتيرفا جنت، وماجوميت، وهذا الثالوث الفلكى تم تطويره فى الترجمة الألمانية فى عصر اللغة الأدبية الألمانية الوسيطة الذى يمتد من القرن الحادى عشر حتى القرن الرابع عشر، حتى صوروا (الكفرة) أى المسلمين وهم يدعون آلهتهم هذه قبل المعارك، ويقول هيركومر إن هذه النسخة من الملحمة مازالت فى كتاب بعنوان (كارل الأعظم) يرجع تاريخ نشره بين عامى ١٢١٥ و١٢٣٣ وتحتوى على خرافة الصنم (ماجوميت) ويقصد بهذا الاسم (محمد) (ﷺ).

وفى القرن الثالث عشر تغيرت النظرة إلى الإسلام جزئيا فعرف الأوروبيون أن المسلمين لا يعبدون الأصنام، واكتشفوا كذب القصة التى لقيت رواجا فى الفترة السابقة، وملخصها أن المسلمين قتلوا رئيس الأساقفة (تيمو السالزبورجى) لأنه حطم الأصنام التى يعبدها المسلمون (!). وظهر فى أوروبا أن المسلمين لا يعبدون إلا إلها واحدا، وأن الإسلام شريعة سماوية، وأن المسلمين يعترفون بالمسيح وحوارييه وأتباعه. ولكن بقيت الفكرة الغريبة المضللة بأن المسلمين يقدسون المضلل محمدا ﷺ أى أن الطعن فى الإسلام أصبح أقل، ولكنه بقى فى الرسول ﷺ، إلى أن جاء أرنولد الليوبيكى، ومع أنه اعتبر محاربة الصليبيين للمسلمين واجبا دينيا لأن المسلمين - كما قال- هم (كتيبة الشيطان)، إلا أنه

وصف إيمان المسلمين بالله وصفا موضوعيا، وذكر احترام المسلمين للمسيح باعتباره رسولا رفعه الله جسما وروحا إلى السماء، ولكنه أيضا أساء إلى الرسول ﷺ واسماه (ماوميت)، وذكر جيرهارد أنه زار الأماكن القديمة المسيحية وقال (إن المسلمين والمسيحيين يتدفقون على هذه الأماكن معا لتأدية الصلاة، كما ذكر أنه تأثر جدا بالخشوع العميق الذى يؤدى به المسلمون صلاتهم.

وهكذا يستطرد الباحث الألمانى هوبرت هيركومر فى عرض وشرح الأعمال الأدبية والفكرية فى ألمانيا وأوروبا عموما التى صورت المسلمين على أنهم (الكفرة) ووجهت سهام العداء للرسول ﷺ وأساءت إليه وشوهت صورته وصورة الإسلام والمسلمين فى عقول العامة، ومن الطبيعى أن يكون لهذا الميراث العدائى الذى شارك فيه رجال دين، وأدباء، وفلاسفة، من الطبيعى أن يكون لهذا الميراث آثار مترسبة فى الوعى أو فى اللاوعى الغربى عموما.

وقد يكون طبيعيا عندما تنشأ عداوات وحروب مثل الحروب الصليبية أن تكون هناك حرب نفسية وعملية تعبئة نفسية وشعورية ضد (العدو) لتبرير الاعتداء عليه، خاصة وأن الأوروبيين هم الذين جاءوا لغزو المسلمين وليس العكس.. ومادامت عملية الغزو الاستعمارية قد جاءت بادعاء أنها حرب صليبية مقدسة من أجل إعلاء كلمة المسيح ومحاربة الكفرة، فكان من الضرورى اختراع واختلاق ونسج مجموعة هائلة من الأكاذيب لبث الكراهية والعداء للإسلام والمسلمين فى نفوس الأوروبيين عموما حتى لا يرتفع صوت بمعارضة هذه الحملات، وفى نفس الوقت لرفع معنويات الجنود وإقناعهم بأنهم فى (حرب مقدسة) دفاعا عن العقيدة، وبالتالى فإن مصيرهم الفردوس ورضا الرب..

وهكذا اختلطت الأطماع الاستعمارية الغربية بالعقائد الدينية، وسخروا العقيدة سلاحا من أجل تبرير وتمرير هذه الأطماع الاستعمارية.. وإلى اليوم سوف نلاحظ أن كل اتجاه لمعاداة الإسلام، ليس الدافع إليه دافعا عقائديا دينيا فى الأساس، ولكن الدافع الأساسى دافع سياسى واقتصادى وراء أطماع للسيطرة والهيمنة، ولأن العزف على وتر الدين هو عزف على الوتر الحساس الذى يجعل

الناس يندفعون إلى القتال، ويقبلون على الموت بالرضا، فإن عامل الدين كان أداة أو وسيلة سخرها الاستعمار الغربى لتحقيق أطماعه الحقيقية ولم يكن (نشر راية المسيح) هو الهدف الحقيقى على أية حال، وهذا ما اكتشفه المسيحيون فى مصر والعالم العربى، ولذلك لم يتجاوبوا مع الصليبيين الذين رفعوا راية المسيح، وانضم المسيحيون فى الشرق إلى المسلمين وحاربوا الصليبيين، وأدركوا أن دورهم فى هذه الحرب هو نفس دور المسلمين وهو (الدفاع عن الوطن من غزو الفرنجة). وكانت الحرب الصليبية عند المسيحيين المصريين حربا استعمارية وليست حربا دينية.

ولم يكن غريبا ما ذكره المفكر الألمانى هوبرت هيركومر عن موقف توماس الإكوينى فى كتابه (الشامل فى الرد على الكفرة) وهو الكتاب الذى مهد الطريق أمام العمل التبشيرى فى أسبانيا، وهذا الكتاب خصصه توماس الاكوينى للدفاع عن المسيحية والطعن فى الإسلام، ونقل فيه الاتهامات القديمة بأن (ماوميت) ويقصد به الرسول محمدا ﷺ، قد أغوى الشعوب بوعوده لها بالمتع الشهوانية، وبالتالى لم يجد الشهوانيون أية صعوبة فى اتباعه، ويقول توماس الاكوينى: (لم يؤمن برسالته إلا المتوحشون من البشر الذين كانوا يعيشون فى البادية).

ومع ذلك فقد كان فى الغرب بعض أصوات حاولت إنصاف الإسلام، يذكر منها الباحث الألمانى الكاردينال (نيكولاوس الكوسى) و(رامون لول). أما نيكولاوس الكوسى فقد كان عالم لاهوت عاش فى الفترة من عام ١٤٠٠ حتى ١٤٦٤، كما كان فيلسوفا وسياسيا وتابعا للكنيسة فى الوقت ذاته، وله كتاب بعنوان (نظرات فى القرآن) يشمل دراسة جادة عن الإسلام، أهداها إلى البابا بيوس الثانى فى عصر النهضة، كما ألف كتابا بعنوان (السلام بين الأديان) بمناسبة فتح العثمانيين للقسطنطينية سنة ١٤٥٣ أظهر فيه أن الأديان جميعا تتضمن فكرة أساسية واحدة، برغم تنوع طقوسها واختلاف عاداتها، ويرى أن الله تعالى أكبر وأعظم من أن يستطيع دين واحد أن يحتويه، وأن كل دين من الأديان السماوية لا يرى

إلا جزءا من الحقيقة دون أن يستحوذ دين منها على الحقيقة بأكملها، أى إن الحقيقة مقسمة بين هذه الديانات، وكل دين يرى ما لا يراه الدين الآخر، ولا يوجد دين سماوى على حق ودين سماوى على باطل، بل إن الديانات الثلاث تجتمع وتتكامل على الحق.

أما رامون لول فقد عاش فى الفترة بين عامى (١٣٣٢ و١٣١٥) وله كتاب بعنوان (كتاب الكافر والحكماء الثلاثة) يشتمل على حوار دينى بين أربعة أشخاص، أولهم ينكر وجود الله، والثانى مسيحى، والثالث يهودى، والرابع مسلم، ويحاول المؤمنون الثلاثة أن يوضحوا للكافر حقيقة أن الله موجود، وأن بعث الموتى يوم القيامة حقيقة، وهذه المناقشة تدور فى جو من الود والاحترام، ولا يحاول طرف أن يظهر تفوقه على الآخرين، وفى النهاية يؤمن الكافر بالله، ويشعر بالأمل.

المفكر الألمانى فى دراسته العميقة التى بذل الدكتور ثابت عيد مجهودا كبيرا فى ترجمتها وراجعها مع المؤلف نفسه، يختتم دراسته بالقول بأنه لابد من استنباط دروس الحاضر من نظرات الغرب السلبية والإيجابية للإسلام فى القرون الوسطى، وهى تكشف التشويهات والمطاعن والشتائم التى تكشف عن قوة العداء، وتخدم موقفا يتسم بالجهل، ويقوم على تقسيم الشعوب بطريقة تعسفية إلى أعداء وأصدقاء، ويقول: لا يمكن التخلص من هذه المواقف السلبية من خلال تبادل المواقف السلبية، ولكن لابد من اللقاء الشخصى، والحياة اليومية المشتركة، وعندما تتساقط أقنعة التشويه، ويظهر الوجه الإنسانى الحقيقى فسوف يمكن كسر هذه الحلقة الشيطانية لتشويه (الآخر).

ويقول أخيرا: إن مؤسسات الغرب الكنسية كانت لها إسهامات مخزية فى تشويه صورة العرب والأتراك على مر قرون طويلة، ويعيد هيركومر الإشارة إلى الوثيقة التى أصدرها زعماء الكنيسة فى اجتماعهم منذ حوالى ثلاثين عاما، وأشارت إلى خطاب جريجور السابع إلى الملك الناصر منذ حوالى تسعمائة سنة، وفى خطاب جريجور السابع وعنوانه (بيان عن علاقة الكنيسة بالأديان غير

المسيحية) قد تضمن فقرة تقول: (نظرا لما حدث على مر القرون من خصومات ونزاعات بين المسلمين والمسيحيين، ينصح المؤتمر الكنائسى المقدس الجميع بعدم الالتفات إلى الماضى والسعى بإخلاص إلى التوصل إلى تفاهم متبادل، والتعاون على حماية وتشجيع العدالة الاجتماعية والقيم الأخلاقية، ودعم السلام والحرية للبشر جميعا).

وهذه خاتمة مبشرة لهذه الدراسة القائمة.

ولاشك أن البدء بصفحة جديدة ممكن دائما إذا خلصت النوايا.

ولابد من إشارة إلى باحثين ألمان أنصفوا الإسلام فى السنوات الأخيرة مثل آن مارى شيمل، وفى نفس الوقت نستطيع فهم جذور العداء التى عبر عنها سلمان رشدى والكاتب الفرنسى ميشيل هوليبيك الذى قال أمام المحكمة: (إن ازدرائى للإسلام لم يتغير).

وإذا أردنا الدفاع عن الإسلام فإن ذلك يجب أن يكون هناك، وليس هنا؟!

العداء للإسلام وصل إلى سويسرا !

كنت أظن أن روح العداء للإسلام فى الولايات المتحدة ودول أوروبا ولا يمكن أن تصل إلى سويسرا. . لأن صورة الشعب السويسرى فى ذهنى أنه أرقى الشعوب، وأكثرها ثقافة حيادًا وإنصافًا ، وأقلها تأثرًا بالدسائس والمؤامرات التى ناصبت الإسلام العداء منذ بداية نشأته وظلت تطارده على امتداد التاريخ لأكثر من أربعة عشر قرنًا .

ولكن الباحث المصرى المتميز الدكتور ثابت عيد بجامعة زيورخ بسويسرا فاجأنى بترجمة من اللغة الألمانية لكتاب بعنوان (الإسلام فى سويسرا)للباحثين كريستوف بيتر باومان ، وكريستيان ياجى ، مع مقدمة كتبها عالم الأديان السويسرى هانس كينج ، فدفعنى هذا الكتاب إلى البحث عن المزيد من المراجع والمعلومات عن صورة الإسلام فى سويسرا ربما تفيد فى تنبيه الغافلين والمستسلمين لأحلام اليقظة فى العالم الإسلامى .

يشير عالم الأديان السويسرى هانس كينج فى المقدمة إلى رسالة وصلته من المسيحيين فى مصر تتضمن إعلاناً على صفحة كاملة فى صحيفة هيرالد تريبيون الأمريكية فى عدد ٥ نوفمبر ١٩٩٨ موقعاً من ٢٠ شخصية مرموقة فى مصر و ٢٠٠٠ من مشاهير الكتاب والصحفيين ورجال الأعمال والمحامين والأطباء والفنانين والمطربين، جميعهم أقباط مصريون، ويقول الإعلان: (إن مسيحى مصر يشجبون المحاولات المتواصلة لقوى الظلام العدائية الذين يروجون مزاعم باطلة عن اضطهاد الأقباط فى مصر، فى حين أن الحقيقة أن الأقباط يمارسون شعائر دينهم بحرية فى مصر، ويشيدون كنائسهم بالرغم من البيروقراطية الحكومية، كما أن علاقاتهم بالمسلمين ودية جداً، وهم مندمجون كلية فى المجتمع، ويقر البيان بوجود ما يدعو أحياناً إلى الشكوى، إلا أن هذا يرجع إلى أفراد وليس إلى الحكومة المصرية.

ويعلق البروفيسور هانس كينج على هذا البيان بقوله: هكذا يعلن مسيحيو مصر اعتراضهم على دسائس الأجانب! ، ويضيف: إننا فى عصر لا يروج فيه المسيحيون عن الإسلام إلا السلبيات ، فيأتى هذا النداء من المسيحيين فى مصر كاحتجاج على التصورات العدائية عن الإسلام التى يروجها المسيحيون، وغير المسيحيين فى الغرب.. وبالطبع يوجد أيضاً فى مصر وفى الدول الإسلامية الأخرى مسلمون يغرسون تصورات عدائية عن المسيحية ، وليس هذا بمستغرب، فالتصورات العدائية عن (الدين الآخر)مهما كانت متحيزة أو باطلة، فهى أسلوب مريح للغاية، ويمكن استخدامه بسهولة، كما أن التصورات العدائية تؤدى وظيفة سيكولوجية للشخص، ووظائف سياسية اجتماعية للمجتمعات ، فهى تخفف الأعباء عن الذات، وتقنع الإنسان بأنه ليس (نحن)، وليس أصدقاؤنا الذين يتحملون الوزر، ولكن (العدو)وحده هو الذى يتحمل الوزر كله، وكذلك فإن الإحساس بالذنب.. والشعور بالنقص .. والإحباطات.. والمشاعر العدوانية.. كل ذلك يمكن تحويله إلى الخارج، وإسقاطه على (العدو).. أى إن (التصورات العدائية)تسهل لنا إيجاد (كبش الفداء).. والتصورات العدائية لها مهمة أخرى فوق كل ذلك، فهى تساعد على التماسك، ومهما اختلفنا فى أمور كثيرة، نظل متماسكين (ضد العدو)وهكذا يمكن فهم (سيكولوجية العداء فى الغرب للإسلام واختياره كعدو مشترك) لأن وجود عدو مشترك يجعلنا متماسكين، فالتصورات العدائية تشجع على التفكير بأسلوب الكتل.

التصورات العدائية أيضاً تساعد على الاستقطاب، وتجعل الخيار أمامنا، إما هذا وإما ذاك، وتقسيم البشر وتوظيفهم على أساس: صديق أو عدو.. والتصورات العدائية تؤدى إلى التنشيط واليقظة.. تجعل من حقنا أن ندافع عن أنفسنا ضد الآخرين سواء كان الآخرون هم الغرباء، أم الأعداء ، وسواء كان (الآخرون) فى الداخل أم فى الخارج.. وبذلك فإن (الريبة) وحدها لا تكفى، ولن يكون مبررًا استخدام (الأعمال) العدائية، والعنف، سواء العنف المادى، أم النفسى، أم السياسى، وحتى العسكرى، فالتصورات العدائية تحسم حالة التردد والحرج من القتل.. إن التصورات العدائية تؤدى بسهولة إلى الحرب الباردة ، كما تؤدى إلى الحرب الساخنة.

وأعتقد أن هذا التحليل للباحث السويسرى هو أفضل ما يمكن قوله لفهم ضرورة وجود (عدو) للغرب.. وعندما انتهى وجود العدو السوفيتى كان (الإسلام) هو المرشح الأول ليكون (العدو). لأن الغرب لا يمكن أن يتفوق ويحتفظ بتفوقه إلا بإيجاد (عدو)يحقق له ما ذكره البروفيسور السويسرى هانس كينج.. ولكنه يطرح بعد ذلك سؤالاً صعباً: هل يمكن تغيير التصورات العدائية؟.. ويجيب: بالقطع إن هذه التصورات ليست أفكاراً خالدة أو من الضرورات الثابتة،ولذلك يمكن أن تفقد معناها وتصبح غير ذات موضوع. كما حدث فى تصورات الغرب العدائية تجاه النظام السوفيتى، ولكن التصورات العدائية يمكن أن تنتقل من الروس إلى المسلمين والعرب واليابانيين.. ومَنْ يا ترى سيأتى عليه الدور؟.. وفى نفس الوقت فإن تصحيح التصورات العدائية ممكن، ويمكن أن ينقلب الأعداء أصدقاء كما حدث مع دول أوروبا، وذلك عندما يتم التركيز على الجوانب المشتركة والواجبات المشتركة.

ويقول: إنه يوجد حالياً خمسة وعشرون نزاعاً إقليمياً تتورط فيها أربعون دولة، وغالباً ما تلعب الأديان فيها دوراً، وللحق فإن الإسلام ليس وحده فى هذه النزاعات.. ويرفض الباحث السويسرى نظرية صدام الحضارات الذى تقوم الأديان بإشعاله والذى يقال: إنه واقع لا محالة، لأنه لن يكون هناك سلام بين الأمم، بدون سلام بين الأديان.. وإن حوار الأديان أظهر أن الإسلام أيضاً بوسعه أن يسهم فى تشكيل نظام أخلاقى إنسانى مشترك، يتكون من القيم المشتركة والمعايير الثابتة.

ويقول: إنه ليس صحيحاً أن خوف الغرب من الإسلام لم يبدأ إلا بعد سقوط الشيوعية، وتفكك الاتحاد السوفيتى ، وأثناء حرب الخليج، لأن خوف الغرب من الإسلام قديم قدم الإسلام ذاته. ولكن ينبغى أن نفرق بين نوعين من الخوف: خوف له ما يبرره من أسباب مقنعة، وخوف مبنى على الأوهام، فالحضارة الإسلامية بدأت مرحلة الانحطاط حوالى سنة ١١١١ ميلادية، وهى السنة التى تمثل بداية عصر الحضارة الأوروبية ، ومنذ ذلك الوقت وأوربا تتقدم، والمسلمون يتأخرون، فأوربا قوية، والمسلمون ضعفاء ، والقوى لا يخشى الضعيف إلا عن جهل بقوته وضعف الآخر، أو ربما عن مرض نفسى يتوهم فيه القوى نفسه

ضعيفاً ، وأن خصمه الضعيف قوى، وينتهى ثابت عيد من بحثه إلى أن مخاوف الغرب من الإسلام لها سببان: الجهل، والخبث، فهناك فئة الجهلاء فى الغرب يسمون أنفسهم (خبراء فى شئون الشرق الأوسط) دون أن يكونوا قد درسوا تاريخ الإسلام والعرب، ودون أن يفهموا عقلية تلك الشعوب، وهؤلاء يتاجرون بتخويف الغربيين من الإسلام ولكن عن خبث، ولعل برنارد لويس خير من يمثل هذه الطائفة، وأغلبها من ذوى الاتجاهات الصهيونية.

ويورد الدكتور ثابت عيد حوارا طريفا قال فيه لأحد أساتذة الدراسات السياسية الألمان: لماذا المخاوف المزعومة من الإسلام وهى مخاوف ليس لها ما يبررها فالمسلمون اليوم فى حالة ضعف وهم عاجزون عن تصنيع دراجة أطفال دون الاستعانة بالتكنولوجيا الغربية، بينما الغرب لديه أسلحة فتاكة، وقنابل مدمرة، تكفى لسحق المسلمين، بل تكفى لتدمير الكرة الأرضية، ويقول: الحمد لله أن الغرب لم يعدم المتخصصين العقلاء الذين يحاولون تصحيح صورة الإسلام المشوهة فى الغرب، منهم عميدة الاستشراق الألمانى البروفيسورة آنا مارى شيمل، وهانس كينج أشهر علماء الأديان السويسريين، والمستشرق الألمانى جرنوت روتر أستاذ الدراسات الإسلامية فى جامعة هامبورج.

أما كتاب (الإسلام فى سويسرا) الذى ألفه كريستوفر بيتر باومان، وكريستيان ياجى، فإنه يبدأ بالحديث عن المذاهب الإسلامية ويقول: إن المتداول فى الغرب أن الشيعة طائفة متطرفة، وفى ذلك تعميم سطحى، ثم ينتقل إلى الحديث عن المرأة فى القرآن فيقول: إن القرآن يميز بين علاقة الإنسان بربه من ناحية، وعلاقة الإنسان بالإنسان من ناحية أخرى، ففى علاقة الإنسان بالله يتساوى الرجل والمرأة أمام الله، كما جاء فى الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ (النساء : ١) فالمرأة فى الإسلام لم تخلق للرجل كما يقول البعض بل إن الرجل والمرأة خلقا ليكمل أحدهما الآخر، ويساوى الإسلام بين الرجل والمرأة فى الجزاء والحساب والعقاب: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(غافر: ٤٠) وبعكس روايةِ الإنجيل، لا يتهم القرآن حواء وحدها بمعصية الله، بل إن آدم أيضا كان شريكا لها:

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الأعراف: ١٩-٢٤).

ويقول المؤلفان إن الإسلام لا يساوى بين المرأة والرجل فى كل شىء، فلكل منهما حقوق وواجبات منفصلة، فالرجل مسئول عن الإنفاق على الأسرة، وهو الذى يمثل الأسرة أمام المجتمع، والمرأة تنجب الأطفال، وتقوم بتربيتهم، والرجل هو رب العائلة، والمرأة تدين له بالطاعة: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ ﴾ (النساء: ٣٤).

والرسول ﷺ أوصى بحسن معاملة النساء والرفق بهن، وتثير مسألة تعدد الزوجات فى الإسلام الكثير من الجدل فى أوربا ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ﴾ (النساء: ٣).

ويبرر المسلمون ذلك بأن تعدد الزوجات له أسباب تاريخية ، حيث كان عدد النساء يفوق عدد الرجال فى الجاهلية وصدر الإسلام بسبب الحروب وارتفاع عدد القتلى من الرجال، وبالتالى زيادة الأرامل، فكان حل هذه المشكلة فى نظام تعدد الزوجات، وبينما يقول الحديث: (الجنة تحت أقدام الأمهات)ورفع بذلك شأن المرأة إلى أعلى درجة ومع ذلك فإن المرأة لا تتمتع بحقوق الرجل فى الدول الإسلامية فى الحياة اليومية ، وفى الحياة العامة..

ولقد لعبت رواية (ليس بدون ابنتى) التى كتبتها المسلمة الأمريكية الجنسية بيتى محمودى دورا كبيرا فى تشويه مكانة المرأة فى الإسلام، والإساءة إلى الإسلام فى الغرب بشكل عام، فقد بيع من الترجمة الألمانية لهذه الرواية ثلاثة ملايين نسخة. والرواية تحكى مأساة زواج فاشل بين مؤلفة الرواية ومسلم إيرانى. وعامة الغربيين يعممون أحداث هذه الرواية، حتى إن بعض المسلمات فى سويسرا قمن بتوجيه نقد لاذع لمن انتقدوا هذه الرواية وقالت إحداهن: قبل أن ينتقد السويسريون وضع المرأة فى الإسلام، عليهم أن يصلحوا أوضاعها فى سويسرا، فالمرأة فى سويسرا حتى الآن لا تحصل على نفس أجر الرجل إذا قامت بنفس العمل، وحتى عهد قريب كانت المرأة السويسرية فى بعض المناطق لا يحق لها الإدلاء بصوتها فى الانتخابات.. والسويسريون يؤسسون بيوتا خاصة للنساء المضطهدات الهاربات من تعذيب أزواجهن الذين يقومون بضربهن وإساءة معاملتهن، ووضع المرأة فى الكثير من الدول الإسلامية اليوم يشبه وضعها فى سويسرا حتى فترة ليست بعيدة. ويستنكر السويسريون الحجاب، والفصل بين النساء والرجال، وتزويج الآباء بناتهن فى سن مبكرة.

ويبدى المؤلفان انزعاجهما من السيدات المسلمات اللاتى يرتدين الحجاب، بينما كان الحجاب فى الجامعات ممنوعا فى تركيا حتى أكتوبر ١٩٩٠، وتواجه السيدات المحجبات فى سويسرا مشاكل عديدة، ويتعرضن فى الطريق للسباب والشتائم، وقد تمتد أيدى المعاكسين إلى الحجاب لتمزيقه، ويسجل الكتاب شكوى إحدى المسلمات فى سويسرا قائلة: (فى سويسرا يوجد أيضا مسيحيات محجبات مثل الراهبات والممرضات، فلماذا يضايقوننا نحن فقط؟) ويقول المؤلفان: إن

حصول سيدة مسلمة محجبة على مسكن غالبا ما يكون أمرا عسيرا، وقد يكون الحجاب سببا للطرد من العمل.

يقول المؤلفان أيضا: إن الاهتمام بالإسلام ازداد فى السنوات الأخيرة، كما يتضح من الكم الهائل من الكتب والمقالات وبرامج الإذاعات وشبكات التليفزيون التى تعالج موضوع الإسلام. وليس نقص المعلومات فقط هو المشكلة، ولكن المعلومات المتحيزة هى التى تسهم فى نشر الصورة المشوهة عن الإسلام، فكتاب مثل (ليس بدون ابنتى)يجد رواجا وقبولا من القراء أكثر آلاف المرات من أى كتاب موضوعى عن الإسلام، ومثل هذه الكتب تؤكد وتثبت تصورات الأوربيين الخاطئة عن الإسلام. ويضيف المؤلفان: إن الخمينى أسهم فى تشويه صورة الإسلام فى الغرب. ويواجه الباحثون الأوربيون مشاكل جمة عندما يبحثون عن مسلم متدين ليجيب لهم عن بعض الأسئلة المتعلقة بالإسلام، أو لمراجعة ما كتبوه أو قرءوه، فاللغة تقف عائقا، فضلاً عن أن المسلمين يتشاجرون دائما ويتبادلون الاتهامات بعدم فهم الإسلام أو بالبعد عن الإسلام.

يقول المؤلفان: إن الجهل بالإسلام فى سويسرا يبدأ بتسمية المسلمين (المحمديين) ويعتبر معظم المسلمين هذه التسمية إهانة لهم، لأنهم لا يعبدون محمدا ﷺ ولكن يعبدون الله، وبعض الباحثين السويسريين يفرقون بين لفظ (الله) بالألمانية GOTT ولفظ (الله) عند المسلمين، ويقولون إنهم يعبدون GOTT بينما يعبد المسلمون الله ALLAH وكأن هذا إله غير ذاك، ولا يفهمون أن مفهوم اللفظين واحد.

ويتساءل المؤلفان: (لماذا لا نعرف إلا القليل عن بعضنا البعض؟).

ويجيبان بأن السبب هو الخوف المستتر من الآخر، وبسبب الكراهية المتبادلة لا يسعى أى طرف إلى حوار مع الطرف الآخر، وليس لدى أى طرف استعداد كاف لمعرفة واكتشاف عقيدة الآخر، ويضاف إلى ذلك اعتماد السويسريين فى معرفتهم عن الإسلام على كتب غير موضوعية فى الغالب، ومتحيزة ضد الإسلام، مثل: (سوف يفترسنا الإسلام) و (التحدى الإسلامى) و(سيف الإسلام)، وتكشف عناوين أمثال هذه الكتب عن مضمونها، كذلك فإن من المؤكد أن المناهج الدراسية المقررة فى كثير من دول الغرب أسهمت فى

الإبقاء على هذا المستوى المتواضع من المعلومات عن الإسلام، ويظهر العداء بشكل واضح عندما يبحث المسلمون عن مكان لبناء مسجد فإنهم يواجهون الاعتراضات على ذلك.

هل يمثل الإسلام تهديدا للغرب؟

يجيب المؤلفان عن هذا السؤال بأن حرب الخليج لم تكن سبب ظهور مخاوف الغرب من الإسلام، كما لم يكن تزايد أعداد المسلمين فى أوربا سببا لهذه المخاوف، لأن معظم مخاوف الغرب من الإسلام كانت موجودة بالفعل على المستوى الشخصى، ومن خلال التقارير الصحفية عن استخدام الأتراك السكاكين فى المعارك التى تنشب فيما بينهم أو مع جنسيات أخرى. وازدادت التصورات الخاطئة والمتحيزة عن (الأجانب الأشرار)، ولأن معظم الأتراك مسلمون فقد ظهرت المعادلة التى تقول: إن المسلم يعنى طعنات سكين. وقد انتشرت هذه المعادلة لفترة طويلة، دون مناقشة هل الجرائم بين المسلمين أكثر من الجرائم بين المسيحيين، والإسلام والمسيحية يرفضان الجريمة بنفس الدرجة؟ ولكن الخوف من العنف يطفو على السطح دائما كلما أثيرت فكرة إنشاء مركز لتجميع اللاجئين فى سويسرا.

ويتحدث المؤلفان عن مسلسل تليفزيونى من أربعة أجزاء عرضته القناة الثانية الألمانية كتبه الصحفى الألمانى بيتر شول لاكور بعنوان (سيف الإسلام وكانت الفكرة التى غرسها هذا المسلسل فى أذهان من شاهدوه من الأوربيين أن الإسلام لن يمكن وقفه إلا باستخدام السلاح، بعد أن قدم المسلسل نماذج عديدة استخدم المسلمون فيها العنف ضد خصومهم، مما أثار مخاوف كل من تابعوه، فضلا عن أن أعمال الخومينى (الوحشية) لا تزال حاضرة فى أذهان الأوربيين، وفتواه بإهدار دم سلمان رشدى بسبب كتابه (آيات شيطانية)بالرغم من أن إيران رجعت عن هذه الفتوى، وتجول سلمان رشدى بحرية فى معرض فرانكفورت للكتاب فى عام ١٩٩٨. ولكن الأوربيين يتحدثون دائما عن موجة العنف الإسلامى على أنها فى تصاعد مستمر، كما أن عدد الدول المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية فى تزايد مستمر، وكل ذلك ساعد على تزايد مخاوف الغرب من الإسلام. ويقول: المؤلفان إن المسيحيين الذين يمارسون النقد الذاتى لابد لهم أن يتذكروا الأحداث المخزية فى تاريخ الكنيسة قبل أن يعلنوا استنكارهم للإسلام.

يؤكد المؤلفان مرة أخرى: أن الصراع بين الإسلام والمسيحية حقيقة ثابتة، حيث يرى كل منهما أنه الدين الحق، ولدى المسيحيين عدد من الجمعيات التبشيرية هدفها تنصير المسلمين، وقد أصدر البابا يوحنا بول الثانى منشورا بابويا فى يناير ١٩٩١ طالب فيه بتكثيف الحملات التبشيرية، وعلى الرغم من ذلك فالحقيقة أن الإسلام هو أكثر الأديان انتشارا، وهذا يشير إلى نجاح الدعوة الإسلامية، وكذلك فإن أعداد المسلمين الذين يعيشون فى الغرب فى تزايد مستمر، وحسب تعداد ١٩٩٠ تعدى عددهم فى سويسرا ١٣٠ ألف مسلم، وفى ألمانيا أكثر من مليون ونصف مليون، وقد انتشرت المخاوف من أن هذه الأعداد المتزايدة من المسلمين جاءت إلى سويسرا وألمانيا بهدف نشر الإسلام فى البلدين، مع أن تفنيد هذا الادعاء سهل، لأن تزايد أعداد المسلمين فى العالم يرجع إلى أن نسبة تزايد المواليد فى دول العالم الثالث التى ينتمى إليها المسلمون مرتفعة جدا، وبزيادة عدد السكان يزداد الفقر، أى إن المسلمين يزدادون عددا ويزدادون فقرا فى نفس الوقت، ولهذا يتطلعون إلى الهجرة إلى الدول الغنية فى وسط أوربا بحثا عن فرص عمل وسعيا لتحسين مستوى معيشتهم، وهذا هو سبب هجرة المسلمين إلى أوربا، وليس السبب رغبتهم فى الدعوة للإسلام.. فمعظم العمال المسلمين فى سويسرا عمال بسطاء، غير مثقفين، أو من طالبى اللجوء السياسى، وهم إن كانوا متدينين فإنهم لا يتطلعون إلى نشر دينهم بين الشعب السويسرى..

وإن كان لفظ (التبشير) فى المسيحية يكاد يتطابق مع لفظ (الدعوة) عند المسلمين، وكما أن التبشير فرض فى المسيحية كما جاء فى إنجيل مرقص (١٦ - ١٦): (اذهبوا إلى العالم أجمع وكرزوا (أى قوموا بالتبشير) بالإنجيل للخليقة كلها) فلا يوجد مقابل لذلك فى الإسلام، وعلى العكس يقول القرآن:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

(يونس: ٩٩، ١٠٠)

ويقول المؤلفان بالإضافة إلى ذلك: إنه على الرغم من وضوح هذا المبدأ القرآنى فإن الواقع قد يختلف أحيانا عن النظرية، فالمسلمون فى دول وسط أوربا يقومون بالدعوة، ولكنها دعوة داخلية، أى تقتصر على تعليم ودعوة المسلمين فحسب، بمعنى محاولة إحياء الحس الدينى لدى المسلمين غير المتدينين.

ويبحث المؤلفان عن أسباب المخاوف، ويصل بهما بحثهما إلى أن اختلاف العقليات، وعدم إتقان لغة الآخر، يؤديان إلى صعوبة الفهم المتبادل، وتظهر مخاوف السويسريين من الإسلام عندما تبحث مجموعة من المسلمين عن مكان يمارسون فيه عبادتهم، ولأن السويسريين يخشون من الإسلام منذ البداية فإنهم يرفضون منح المسلمين التصاريح لبناء مساجد، ومن بين الحجج التى يسوقها السويسريون لموقفهم قولهم بأن المسلمين لا يحسنون معاملة المسيحيين فى العالم الإسلامى، حتى إنه كان ممنوعا على قوات الحلفاء فى السعودية أثناء حرب الخليج أن تحتفل بأعياد الميلاد (وهذا غير صحيح) فى الوقت الذى يسمح فيه المسيحيون للمسلمين بإقامة مساجد وبناء مراكز إسلامية، ويرى المؤلفان أن هذا الادعاء صحيح جزئيا حيث أقامت السعودية ثلاثة مراكز إسلامية فى سويسرا بينما الجالية السعودية لا يتعدى أفرادها ألف سعودى، (السعودية لا تقيم المراكز والمساجد للسعوديين فقط ولكن للمسلمين المقيمين من أية جنسية).

ويقول المؤلفان: إن نسبة الأطفال الأجانب فى بعض دور الحضانة السويسرية يصل أحيانا إلى ٧٥٪ من عدد الأطفال، ومن هذه النسبة عدد كبير من الأطفال المسلمين، وذلك يمثل فى ذاته حقيقة مزعجة جدا لكثير من السويسريين، حيث يتساءل بعضهم: كيف يمكننا تدريس الثقافة المسيحية وتأصيلها لدى أطفالنا فى الحضانة، فى حين أن معظم الأطفال ليسوا مسيحيين؟ وهذه الأوضاع لا تقلق السويسريين المعادين للأجانب فحسب، بل إن هناك فئة كبيرة من السويسريين الآخرين يخشون فقدان الهوية نتيجة لهذه التغيرات. ويقول المؤلفان: الواقع أن فقدان التدين، والابتعاد عن المسيحية بدأ فى عائلات سويسرية كثيرة قبل ذلك بوقت طويل، ومن السهل جدا اتخاذ الأجانب كبش فداء، ولكن ذلك لن يحل

المشكلة، فإذا كان التدين غير موجود أصلا في الأسرة، فمن الصعب على الحضانة، أو المدارس أن تعوض هذا النقص.

يقول المؤلفان: إن مستوى المعلومات لدى أصحاب كل دين عن دين الآخر متواضع، فالمسلم العادى لا يعرف عن الدين المسيحى فى الغالب إلا القليل، ونادرا ما يكلف المسلم نفسه عناء معرفة المسيحية بقراءة الإنجيل.. ويتحفظ المسلمون على عقيدة التثليث، ويرون أن المسيح تلقى إنجيلا واحدا من الله، ولكن أتباعه جعلوه خمسة أناجيل، ويجهل المسلمون تاريخ الكنيسة كما يجهل المسيحيون تاريخ الإسلام، وتوجد بالإضافة إلى ذلك تصورات خاطئة لدى المسلمين عن المرأة الأوربية، حيث يحكمون عليها من خلال ما ترتديه من ملابس تبدو لهم شبه عارية، يضاف إلى ذلك أن معظم المسلمين في سويسرا وألمانيا لا يتمتعون سوى بقدر ضئيل من الثقافة، ومعرفتهم بالإسلام محدودة جدا، بالرغم من تمسك بعضهم بالعبادات. ويشمل هذا الجهل أو نقص المعلومات هؤلاء الذين يعلنون إسلامهم من الأوربيين، وغالبا ما تكون معلوماتهم عن المسيحية أيضا متواضعة جدا.

لذلك – كما يقول المؤلفان – لابد من التفريق فى المسيحية والإسلام بين الدين واتباعه ولا ينبغى الخلط بين ديانة مًا والطريقة التى يعيش بها أصحاب هذه الديانة، ولا يمكن استنتاج تعاليم ديانة معينة من خلال سلوك اتباع هذه الديانة، على الرغم من أنهم قد يترددون بانتظام على الكنيسة أو المسجد، كما لا يمكن الحكم على دين من خلال حياة فرد واحد من اتباع هذا الدين، أو عن طريق التقارير الصحفية التى تميل إلى المبالغة والتهويل. فالفرد المسلم لا يمكن اعتباره ممثلا للإسلام كله.. وكذلك الحال بالنسبة للفرد المسيحى والمسيحية، فكما توجد اتجاهات مختلفة فى المسيحية توجد أيضا فى الإسلام اختلافات ثقافية، واجتماعية، وسياسية، تبعا للاتجاه العقائدى، واختلاف البلاد الإسلامية. والطريقة المثلى لفهم العقيدة هى دراسة الكتب السماوية ذاتها، أو الكتب التى تعطى القارئ فكرة عن تلك العقائد. وبعكس المسيحية التى رفضت الاعتراف بالقرآن على مر القرون، واعتبرته من تأليف محمد ﷺ يعترف القرآن بالكتب السماوية الأخرى ومنها الإنجيل.

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

ويشير المؤلفان إلى كتاب من تأليف الباحث السويسرى هانس كينج بعنوان (مشروع أخلاق عالمية)يقول فيه: (لن يكون هناك سلام عالمى بدون سلام بين الأديان)فإذا كانت سويسرا لا تستطيع أن تسهم فى تحقيق السلام العالمى، فلا أقل من أن تعمل على تحقيق التعايش السلمى بين مختلف الأديان، والجنسيات، والأجناس فى داخلها. ويضيف المؤلفان: لا يختلف اليوم اثنان على استحالة تجاهل وجود المسلمين فى أوربا. وهناك تطورات إيجابية تشير إلى التفهم المتزايد للإسلام فى سويسرا. فليس المطلوب إدخال المسلمين فى المسيحية، ولكن المطلوب هو الحوار، ولذلك أصبحت جمعيات التبشير السويسرية منذ اجتماعها سنة ١٩٩١ لا تعتمد على (مبشرين)للتبشير بالمسيحية فى مختلف دول العالم، ولكن تعتمد على موظفين يتقنون الحوار.

ويتحدث المؤلفان عن المهاجرين المسلمين فى سويسرا، وقد أصبح عددهم أكثر من ١٣٠ ألف مسلم، وهم مثل كل المهاجرين يواجهون فى البداية مشكلة التأقلم مع المجتمع الجديد، فالناس فى سويسرا يتحدثون لغة أخرى، ولهم سلوك مختلف، وملامحهم قد تبدو غريبة، ويلبسون ملابس غير معتادة، وطعامهم غير مألوف، وعلاقة الرجال بالنساء على غير ما اعتاد المهاجرون، ونظم التعليم مختلفة، والأجور تبدو مرتفعة ولكنها تتضاءل بسرعة عند سداد قيمة الإيجار والاكتواء بنار الأسعار، وفضلا عن ذلك فالعمل مختلف، وأوقاته مختلفة، ونظمه وقوانينه، وأساليب الإدارة الحديثة، وعادات عجيبة.. كل ذلك يمثل مشاكل يواجهها المهاجرون جميعا، وكما أثبت عالِم الاقتصاد والاجتماع يوخايم هوفمان نووتنى: فإن القاعدة أن وضع المهاجرين فى المجتمع يكون فى مرتبة ثانية وهم يواجهون مشكلة مزدوجة، فمن ناحية يجد المهاجرون الجدد أنفسهم أمام تحد جديد يجعلهم يكافحون من أجل تحسين وضعهم الاجتماعى فى بلد المهجر، ومن ناحية أخرى عليهم أن يظهروا دائما أمام أبناء بلدهم الذين لم

يهاجروا، والذين هاجروا معهم، بمظهر المحتفظين بأصالتهم، وهذا يعنى المحافظة على شرف العائلة وسمعتها فيما يخص البنات والنساء حتى لو أدى ذلك إلى مشاكل شائكة فى مجتمع يمارس التعليم المختلط.

وعدد المسلمين الذين يحملون الجنسية السويسرية وفقا لتعداد عام ١٩٩٠ يبلغ خمسة آلاف مسلم تقريبا، منهم عدد كبير ليس سويسرى الأصل، ولكنه نشأ فى عائلة مسلمة، أما السويسريون الذين يعلنون إسلامهم فلا يترددون كثيرا على المساجد، لأن اللغة تبقى عائقا كبيرا بالنسبة لهم، على الرغم مما يشعرون به من جاذبية نحو الإسلام، وبعكس ألمانيا، لا يوجد فى سويسرا جمعيات إسلامية للمسلمين الناطقين بالألمانية باستثناء الجماعات الصوفية.. وقد وصل عدد المسلمين فى سويسرا وفق إحصاء ١٩٩٠ إلى ١٣٠ ألف مسلم أى ٢٪ من السكان تقريبا، وهم من دول العالم الإسلامى المختلفة، ونسبة منهم حصلت على الجنسية السويسرية، كما يوجد عدد غير قليل من السويسريين أعلنوا إسلامهم وتزوجوا من مسلمات، ولكنَّ هناك أيضا عددا كبيرا من السويسريين يشهرون إسلامهم دون أن يكون الزواج هو الدافع لذلك، وعدد السويسريات اللاتى يدخلن فى الإسلام بدون ارتباط بزوج مسلم فى تزايد مستمر، وتأثير الأقلية المسلمة فى سويسرا على الحياة السياسية والثقافية ضئيل جدا، ويعتبر الإسلام ثالث أكبر الأديان فى سويسرا، إلا أنه ما زال يمثل أقلية دينية، ويذهب كثير من المسلمين إلى المساجد فى الأعياد، وفى صلاة الجمعة. أما الأطفال المسلمون فإنهم يواجهون مشكلة الانقسام بين ثقافة علمانية غربية، وثقافة إسلامية شرقية.

وعن مشاكل المسلمين فى سويسرا يقول المؤلفان: إن منها الصيام فى رمضان، فإنه حين يأتى رمضان فى فصل الصيف ترتفع درجة الحرارة، وتزداد ساعات النهار، ويختلف الأمر عن الصيام فى دولة إسلامية حيث يصوم فيها الجميع، وتقل ساعات العمل، أما فى مجتمع علمانى مثل سويسرا فإن المسلم الصائم عليه أن يمارس عمله كالمعتاد، ولأن معظم المسلمين يمثلون عمالة غير مؤهلة فإنهم يقومون بالأعمال الشاقة والقذرة، ويكون الصيام بالنسبة لهم مشقة كبيرة، لأن المجتمع يطالبهم بالإنتاج بذات الطاقة التى يعملون بها فى سائر شهور السنة.

كذلك فإن تأدية الصلوات الخمس فى مواقيتها مشكلة حيث يرفض مديرو الشركات والمصانع منح العمال المسلمين فترة للصلاة والسبب هو الجهل بالإسلام، ومعاداة الأجانب، والخوف من كل ما هو غريب. ويعبر عن ذلك أحد المديرين بقوله: (لابد أن يتأقلم هؤلاء المحمديون على الحياة هنا. هل يعتقدون أننا نريد أن يصبح الإسلام دين الدولة فى سويسرا ؟)ومشكلة أخرى أن معظم المسلمين فى سويسرا يجهلون قواعد العبادات فى الإسلام، فلا يعرفون أن الجمع بين الظهر والعصر ممكن للضرورة، ويترتب على ذلك أن معظمهم يترك الصلاة كلية بمجرد أن يواجه بتعذر تأدية بعض الصلوات فى مكان العمل، وبعد ذلك قد يفقدون كل ما يربطهم بالإسلام وأخلاقياته وروحه.

مشكلة أخرى.. هى الحصول على اللحم المذبوح وفقا للشريعة الإسلامية، وكثير من المنتجات الغذائية تحتوى على دهن الخنزير ويكتفى بذكر أنها تحتوى على (دهن حيوانى). والذبح على الطريقة الإسلامية ممنوع فى سويسرا بالقانون، ولذلك يضطر المسلمون إلى أكل اللحوم المتوافرة على الرغم من أنها ليست مذبوحة بالطريقة الإسلامية، بينما تشترى فئة أخرى من المسلمين ما تحتاج إليه من لحوم من محلات الجزارة اليهودية حيث لا يأكل اليهود لحم الخنزير، ويذبحون الحيوان، ولا يقتلونه بالصدمة الكهربائية أو بالرصاص على الطريقة السويسرية.. وليس هناك غير قلة من المسلمين يخالفون القانون ويذبحون الحيوان بالطريقة الإسلامية، والشائعات المتداولة تقول إن المسلمين فى سويسرا يذبحون الماعز والخرفان خفية فى حمامات البيوت ولكن ذلك غير صحيح، بينما فى العاصمة الألمانية برلين أصبح منذ عام ١٩٨٩ مسموحا بذبح الحيوان ولكن بعد تخديره أولا والتأكد من ذلك طبيا، وتقوم بعض محلات الجزارة فى سويسرا بالذبح فى فرنسا فى مذبح خاص يستخدمه اليهود وبعد ذلك يقومون باستيراد هذه اللحوم إلى سويسرا بتصريح خاص.

ليست هذه كل مشاكل المسلمين فى سويسرا.. هناك مشكلة تربية الأطفال.. فالأطفال المولودون فى سويسرا يتقنون إحدى لغات سويسرا، ويتحدثون لغة آبائهم فى البيت، لكن لغة الآباء تتحول مع الوقت إلى لغة أجنبية بالنسبة

لهم، والشيء نفسه ينطبق على الثقافة والدين، فالأطفال يعيشون في عالمين، أو ثقافتين مختلفتين، دون أن يشعروا بالانتماء الكامل لإحداهما. أما بنات المسلمين فتواجههن مشاكلُ عديدة بسبب اختلاف التقاليد الإسلامية عن تقاليد المجتمع السويسرى فى الاختلاط، والجنس، والزواج، ولا تقل مشاكل الآباء عن مشاكل الأبناء صعوبة، فتأدية حقوق المجتمع السويسرى، ومحاولة التأقلم مع عاداته وتقاليده غالبا ما تصطدم من الناحية الأخرى بالتعاليم الإسلامية والعادات الشرقية.

والهرم الاجتماعى فى سويسرا كما يقول المؤلفان فى قمته السويسريون، وبعدهم الألمان، ثم النمساويون، ثم الفرنسيون، ثم الإنجليز، ثم الإيطاليون، ثم الأسبان، ثم البرتغاليون، ثم اليوغسلاف، ثم الأتراك، ثم السود، ثم طالبو اللجوء السياسى.

ويمثل الأتراك أكبر جالية مسلمة فى سويسرا من ناحية العدد، وهم أكثر الجاليات تنظيما و٩٠٪ من المساجد فى سويسرا وألمانيا أسسها أتراك، ولأنهم نشطون فقد صار السويسريون يعتقدون خطأ أن كل ما هو تركى لابد أن تكون له علاقة بالإسلام، ويختلف الأتراك المقيمون فى سويسرا فى موقفهم من الحكومة التركية، فبعضهم يرفض التعامل معها، بينما لا يمانع البعض الآخر من التعامل معها، ويتراوح عدد المنظمات الإسلامية التركية التى تتلقى معونات من الحكومة التركية بين عشر وعشرين منظمة. بينما يبلغ عدد المسلمين اليوغسلاف حسب إحصاء ١٩٩٠ حوالى ٣٥ ألف مسلم يتحدث معظمهم اللغة الألبانية، ولكنهم غير منظمين مثل الأتراك. وتلتقى جماعة منهم فى مسجد فى زيورخ من وقت لآخر. وفى بازل تلقى خطبة الجمعة أحيانا باللغة الألبانية. أما السعوديون المقيمون فى سويسرا فعددهم حوالى ١٥٠٠. وعلى الرغم من ضآلة العدد فإن نفوذ السعودية فى سويسرا كبير وحضورها قوى - كما يقول المؤلفان - وذلك بسبب الميزانية الضخمة التى تخصصها السعودية للدعوة الإسلامية، وقد رفضت السلطات السويسرية الترخيص ببناء مسجد جديد فى برن، وقد شيدت السعودية مسجدا كبيرا فى العاصمة جنيف وهو يتسع لمئات المصلين وفيه مكان خاص للسيدات ويحتوى على مكتبة، وقاعة اجتماعات، وقاعة محاضرات، ومعمل لغات،

ومطبخ، ويضم مكانا لحفظ جثث الموتى المسلمين إلى حين إرسالها للدفن فى بلادها الأصلية. وقد افتتح هذا المسجد عام ١٩٧٨ وتم تحويله إلى وقف إسلامى مستقل عن الحكومات الإسلامية، وتلقى فيه خطبة الجمعة باللغة العربية، وتترجم ترجمة فورية إلى اللغتين الإنجليزية والألمانية.. ويوجد فى مدينة بازل خمسة مساجد يجتمع فيها للصلاة بين ٥٠٠ و ٩٠٠ مسلم، وتتراوح نسبة المتدينين بين المسلمين فى سويسرا بين ٢٠٪ و ٢٥٪ وهى فى تزايد مستمر، ونظرا لتزايد أعداد السويسريين الذين يترددون على الكنائس، فإنهم يقولون: هل سنسمع قريبا صوت المؤذن بدلاً من أجراس الكنائس؟

يقول المؤلفان: كلما كانت الاختلافات الثقافية بين بلد المهجر وبلد المنبع كبيرة ازدادت مشاكل المهاجرين صعوبة، وكمثال لذلك نجد أصحاب الأعمال السويسريين يفضلون العمال من البرتغال عن العمال الأتراك، لأن العمال البرتغال لا يسببون مشاكل فى أماكن العمل بعكس الأتراك الذين يواجهون صعوبة فى التأقلم مع نظم العمل فى سويسرا وإطاعة أوامر القيادات النسائية، ولا توجد دراسات عن (الصدمة الحضارية) التى يواجهها المهاجرون إلى سويسرا من مختلف دول العالم، ولكن المرجح أن هذه الصدمة أشد بالنسبة للمهاجرين المسلمين الذين نشئوا فى مجتمعات إسلامية محافظة أو متشددة، وتعتبر (العودة إلى الإسلام) بين المهاجرين تعبيرا عن الاحتجاج على ما يواجهونه فى بلد المهجر من تمييز واضطهاد، وإن كان المسلمون المتعلمون لا يواجهون أية صعوبة فى التأقلم مع المجتمعات الحديثة، ومن هؤلاء: الأطباء، والمهندسون، وأساتذة الجامعة، أما الطبقات الدنيا من المسلمين وأصحاب التعليم المتواضع والثقافة السطحية شديدة التمسك بالشكليات على حساب جوهر الدين فهى التى تواجه مشاكل التأقلم.

كتاب آخر أهدانى الدكتور ثابت عيد ترجمة وتلخيصا له، بعنوان (العالم العربى فى عيون السويسريين: الشرق الأوسط بؤرة الصراعات)تأليف أريك جيسلنج وأرنولد هوتينجر، والفصل الأول من الكتاب بعنوان (دار الإسلام ودار الحرب)، يقول فيه جيسلنج: هناك زعم بأن سكان الشرق الأوسط يتصرفون تصرفا عاطفيا وليس عقلانيا. وإنى أشعر بأننا - كأوربيين - نتحمل جانبا من

المسئولية عن تأسيس دولة إسرائيل وعن الاستعمار، ولقد اكتشفنا منذ تولى الخومينى السلطة أن العالم العربى لديه أولويات مختلفة عن الأولويات عندنا، فنحن نفترض أن الحرية هى أسمى ما يمكن أن يتملكه الفرد، ونحن نتقبل نتيجة لذلك الشعور بعدم الأمان، فنحن مسئولون عن كل عمل من أعمالنا، ونحن مستعدون لأن نتحمل عواقب كل أعمالنا، أما العالم الإسلامى، فقد علمنا أنه من الممكن أن يؤدى انعدام الحرية إلى الشعور الداخلى بالأمان واليقين، وكان الخومينى يقول: (إذا فعلت هذا فأنت تقترب من الله قليلا، وإذا لم تتبع ذلك فإنك تبتعد عن الله)فإن هذا النظام يمنح الأفراد إحساسا عميقا بالأمان والطمأنينة، وهذا شىء لا يفهمه الكثيرون فى الغرب. ويرد عليه هوتينجر فيقول: نحن أيضا كان لدينا فى الماضى حضارة يحكمها الدين وأوامره، والكنيسة كانت تقول: (هذا مسموح وذاك محرم) وفى الإسلام ما زال الوضع هكذا إلى حد مذهل. فمنذ القرون الوسطى (من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر)تطورت الحضارتان فى اتجاهين مختلفين، فعلى أحد جانبى البحر المتوسط ظهرت حركة النهضة والإصلاح والتنوير، وجعلت الأولوية للعقلانية، والتكنولوجيا، وأخيرا الثورة الصناعية، بينما ظلت الصورة الدينية الإلهية للعالم قائمة على الجانب الآخر من البحر المتوسط. وصحيح كانت هناك ديانتان قبل هذا التطور، لم تعترف أى منهما بالأخرى، دانتى اعتبر محمدا ﷺ زنديقا، ولا شك أن المسلمين أيضا كانوا ينظرون إلى المسيحيين باحتقار، ولكن مع ذلك كانت هناك حضارتان فى العصور الوسطى متشابهتان من حيث إن كلا منهما محكومة بالشريعة أو بالقانون الإلهى، وكانت كل منهما تعرف الأخرى، وخاصة المسلمين فلم يكن المسيحيون بالنسبة لهم غرباء، لأن المسيحيين عاشوا فى الدول الإسلامية كطائفة دينية معترف بها، صحيح أنهم كانوا فى منزلة أقل من المسلمين، ولكنهم كانوا يتمتعون بحمايتهم، ولم يظهر الخندق الكبير الذى لم يعد ممكنا عبوره حتى يومنا هذا إلا عندما بدأ فى الغرب التطور العقلانى سريعا، عن طريق ديكارت مثلا، وفصل الغرب بين الدين والعقلانية، وشهد البحر المتوسط تصادم الحضارتين مرارا وتكرارا.

ويتوقف جيسلنج عند مفهوم دار الإسلام ودار الحرب عند المسلمين، فيقول إن دار الإسلام تعنى الخضوع والقبول، ودار الحرب هى العالم الأجنبى الغريب، ومن المرجح أن الطرفين افترضا أن هناك ما يشبه منطقة نفوذ مشتركة بينهما كحل وسط فيما بينهما، وهى منطقة كان يوجد بها نوع من التسامح المتبادل. وبصفة عامة ظلت الحدود الفاصلة بين العالمين قائمة من الناحية النظرية ولكن ما يشغلنى بصورة دائمة هو قلة ما يعرفه كل طرف عن الطرف الآخر.

ويقول هوتينجر: إن المسلمين لم ينظروا إلى المسيحيين كمثل أعلى لهم، وكانت المسيحية بالنسبة لهم ديانة ناقصة، وثقافة ناقصة أيضا، وعندما يكون صاحب الثقافة المسيطرة هو الأقوى، تتكون لديه مشاعر الاحتقار للثقافة الأضعف، ويظل هذا الاحتقار لفترة طويلة، حتى عندما تنقلب الظروف، وتصبح الثقافة الأضعف سابقا هى الأقوى والأهم بعد ذلك. وهذا ما حدث للمسلمين، كانت أوربا تزداد قوة وأهمية، وظل العثمانيون متفوقين من الناحية العسكرية لقرون طويلة، وكان المسلمون حتى أواخر القرن الثامن عشر يعتقدون أن الدول الأوربية عديمة الأهمية، وأنهم ليسوا بحاجة إلى الاهتمام بها، فالمسيحيون واليهود كانوا معروفين من قديم للمسلمين. وكان أهل الذمة فى الإسلام من المسيحيين واليهود وغيرهم هم الذين انهزموا أمام المسلمين، ولكن حدث فى أوربا تطور عكسى.. فقد ترجم يوحنا يعقوب هوتينجر معانى القرآن قبل أن يهتم المسلمون بالديانة المسيحية لفترة طويلة، ومع روح النهضة، والبحث عن طريق إلى الهند.. (وكان هذا الطريق معروفا للمسلمين منذ قرون)، ومع روح التنوير، ظهر فى أوربا اهتمام بالثقافات الأخرى، وبدأ الأوربيون ينظرون إلى هذه الحضارات كشىء مختلف جدا، ولكن له صلة بهم فى نفس الوقت، وهذه الروح الجديدة كانت موجودة عند المسلمين فى فجر الإسلام، ولكنها تكاد تنعدم فى العصور المتأخرة، فلم ير المسلمون أنهم مضطرون للتعلم من الأوربيين، أو اقتباس بعض عناصر الحضارة الغربية، إلا فيما بعد، عندما ظهر تفوق الأوربيين بصورة واضحة جدا، ولم يكن ذلك عن حب ولا من موقف أساسى، ولكنه حدث إجباريا، حين ظهر تفوق الأوربيين وقوتهم، ولذلك فإن المسلمين يتعلمون من الغربيين على كره منهم فى حقيقة الأمر.. فليس لدى المسلمين بحث علمى ولكن عندهم تقليد

واقتباس إجبارى.. لقد كان المسلمون فى البداية متفوقين.. ثم خلدوا إلى الراحة بعد ما حققوه من نجاح، وعاشوا فى استرخاء، ولم يشعروا بحافز يدعوهم للاهتمام بالحضارات الأخرى، بينما حدث العكس فى الحضارة الغربية، التى بدأت منذ عصر النهضة تنطلق نحو الخارج، وتهتم بالحضارات الأخرى، وحدث نفس الشىء فى التجارة.. تجار مدينة البندقية كانوا يذهبون إلى الإسكندرية.. ولكن أبناء الإسكندرية لم يذهبوا إلى مدينة البندقية.. كان حب المعرفة فى عصر النهضة الأوربية شيئا غير مألوف أدى إلى تغيير علاقة الحضارتين بعضهما ببعض فى أوربا.

ويقول جيسلنج: عندما حدثت اتصالات بين أوربا والعالم الإسلامى فى العصور المبكرة اعتبر العرب الذين ذهبوا إلى أوربا فى ذلك الوقت أن التنوع والتعدد فى أوربا تخلفا سواء تعدد اللغات أو تعدد الثقافات.. لأن المسلمين كانوا يرون أن الحضارة ينبغى أن تكون حضارة واحدة.. واللغة يجب أن تكون واحدة.. والثقافة.. والدين.. كل شىء يجب أن يكون واحدا.. وهذا أمر ينظر إليه الفكر الغربى على أنه سلبى بينما يعتبره المسلمون إيجابيا، وينظرون إلى التنوع والتعدد فى الغرب على أنه ظاهرة همجية. ومن ناحية أخرى فإن الإسلام يرفض قبول البدع، ومن ناحية أخرى هناك استثناء إذا كان من شأن (البدع)تقوية المسلمين بتكنولوجيا الأسلحة من الأعداء الأجانب مثلا فيكون ذلك مسموحا به، وهذا ما فعله الإيرانيون فى فضيحة (كونترا - إيران) فلقد حاولوا الابتعاد عن الغرب ولكنهم قبلوا الأسلحة الحديثة من الأمريكيين.

ويعلق هوتينجر على ذلك بقوله: لقد وجد العثمانيون أنفسهم مضطرين إلى اقتباس الأنظمة الحربية من الأوربيين، واقتبسوا الأسلحة، ثم الزى، ثم صناعة البارود، وهكذا بدأ التيار الجارف لما يطلق عليه (التغريب). وما زال الوضع هكذا مع (البدع)حتى اليوم. لقد ضيع المسلمون قرونا برفضهم الجديد واعتباره من (البدع)حتى أغلقوا باب الاجتهاد.. وفتحوا باب الجمود القائم منذ ذلك الوقت واستمر هذا الجمود حتى بداية النهضة فى العالم العربى فى أواخر القرن التاسع

عشر وأوائل القرن العشرين. والواقع أن هذا الجمود ما زال مستمرا حتى الآن، ففى الجامعات مثلا، لا يوجد نظام للتعليم أو البحث العلمى بالمعنى الأوربى الحديث، بينما اقتبس اليابانيون نظام البحث العلمى الأوربى، ولكن المسلمين لم يفعلوا ذلك، ويرجع ذلك إلى استمرار العلاقة التقليدية بالعلم، فالمرء يتعلم من كتاب، ويحفظ ما فى هذا الكتاب، ويتقن ما فيه، فيصير بذلك (عالما)، لأن لفظ (علم)فى اللغة العربية يعنى العلم بما هو موجود، وهذا العلم يكون الحصول عليه بالحفظ، أما البحث والاكتشاف فشىء آخر.. إنه إضافة معلومة جديدة إلى العلم القائم.. وهذا هو ما ظل شيئا مريبا فى الإسلام منذ إغلاق باب الاجتهاد فى القرن التاسع وأوائل القرن العاشر، منذ وفاة الإمام الغزالى عام ١١١١ ميلادية، ويمثل هذا التاريخ تقريبا نهاية عصر ازدهار الحضارة الإسلامية وبداية ازدهار الحضارة الأوربية.

ليس هذا كل شىء فى الكتاب القيم الذى لخصه وترجمة الدكتور ثابت عيد.. ولكن فى ذلك الكفاية لنعرف كيف يفكرون فى سويسرا.. وما هى أحوال المسلمين والإسلام هناك..

وما يثيره المفكرون السويسريون يستحق أن ندرسه جيداً وبموضوعية، ويدور حوله حوار معهم ولا يكفى أن نحاور أنفسنا ونكشف لأنفسنا ما فيه من أخطاء..

وشكرا للدكتور ثابت عيد.

قبل وبعد ١١ سبتمبر
المسلمون هم الضحية !

قبل تفجير برجى مركز التجارة العالمى فى نيويورك ومبنى وزارة الدفاع الأمريكية فى واشنطن كانت حملة الكراهية للإسلام والمسلمين قائمة فى الولايات المتحدة، ولكن الحملة بعد هذه الأحداث الإجرامية التى وقعت فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ تحولت إلى حالة عامة من الكراهية.

وامتدت هذه الحالة من الولايات المتحدة إلى دول أوربا، وكان واضحا أن هناك من ينفخ فى النار ويعمل على توجيه مشاعر الكراهية والسخط على الإرهاب إلى كراهية وسخط على المسلمين عموماً، وذلك بتصوير المسلمين جميعاً على أنهم إرهابيون، وأن هذا الإرهاب مصدره الإسلام ذاته كدين يدعو أتباعه إلى (الجهاد) ضد الكفار، ويعتبر غير المسلمين جميعاً كفارا، بل يسمح للمسلمين بالحكم على مسلمين بأنهم كفار !.

ولوزير الدفاع الأمريكى مستشار مسلم هو الدكتور يحيى هندى، وهو فى نفس الوقت رئيس المجلس الفقهى لشمال أمريكا ورئيس المؤتمر العام لشئون المسلمين فى أمريكا، وقد زار الدكتور يحيى هندى القاهرة فى سبتمبر ٢٠٠٢ وأدلى بأحاديث صحفية قال فيها: إن اللوبى اليهودى وبعض الجماعات الأخرى التى تناهض الإسلام فى الولايات المتحدة عملت على استغلال أحداث سبتمبر لبناء سد منيع بين الأمريكيين والإسلام، وهدفهم من ذلك منع انتشار الإسلام فى الولايات المتحدة وأوروبا، وقال أيضاً: إن هذا الحادث حول النظريات والأيديولوجيات السياسية التى سيطرت على أفكار السياسيين فى العالم فى الآونة الأخيرة، وكان تأثيره بالغا على العلاقة بين الديانات السماوية، بعد شيوع الاتهام للمسلمين عن هذا الحادث، وانتهز اليهود الفرصة لخدمة أهدافهم

فى الشرق الأوسط، فساعدوا على تأجيج الحملة ضد الإسلام والمسلمين، وأدى ذلك إلى انتشار الفزع والخوف لدى المسلمين فى الولايات المتحدة، لكن الإعلام الأمريكى، والإعلام الغربى عموما ظل يعبر عن موقف عدائى ضد الإسلام والمسلمين وهو الموقف الذى ظل الإعلام الغربى ثابتا عليه منذ سنوات عديدة بسبب سيطرة اليهود على وسائل الإعلام، وتأثير ما تردده وسائل الإعلام على عقول ومشاعر وآراء الشعب الأمريكى، وانعكس ذلك فى إساءة معاملة المسلمين. ورغم تصريحات بعض المسئولين بأن الحرب فى أفغانستان وغيرها هى حرب على الإرهاب وليست حربا على الإسلام فإن الرأى العام السائد يتبنى نظرية مؤامرة المسلمين على الغرب.

وقال مستشار وزير الدفاع الأمريكى فى تصريحاته: إن المسلمين فى الولايات المتحدة تعرضوا بعد هذه الأحداث لممارسات عنصرية وعدوانية، وذلك بعد توجيه الاتهام إلى المسلمين. فقامت وسائل الإعلام بشن حملة على المسلمين وعلى الإسلام عامة وليس على المجرمين وحدهم.

وقال أيضاً: إن فى الولايات المتحدة من يحاربون الإسلام والمسلمين بعد أن أصبحت كل الولايات لا تخلو من مسلمين، كما أصبح فيها ٦ آلاف مؤسسة إسلامية تشمل مساجد ومدارس وجمعيات للدفاع عن حقوق المسلمين فى أمريكا.

وفى الاتحاد الأوروبى مكتب فى فيينا عاصمة النمسا لمراقبة التمييز والحد من كراهية الأجانب برئاسة بوب بوركينز والسيدة بياتا فينكلر، وبعد الهجمات الإرهابية فى الولايات المتحدة فى سبتمبر ٢٠٠١ أعد هذا المكتب تقريرا عن ردود الأفعال المناهضة للإسلام والمسلمين فى دول الاتحاد الأوربى الخمس عشرة، وسجل هذا التقرير الأعمال وردود الأفعال التى اتخذت طابعا عدوانيا، وتغييرا واضحا فى سلوك قطاع من الأوروبيين تجاه المسلمين، ويشير التقرير إلى أن الجاليات الإسلامية أصبحت هدفا للاعتداء، وأن الاعتداء يتزايد ، كما يتزايد الشعور بالخوف من المسلمين فى الرأى العام الأوربى عموما، ويظهر هذا الشعور فى الأعمال العدوانية، والتحرشات التى يتعرض لها المسلمون، رجالا ونساء وأطفالا والسيدات المسلمات المحجبات بوجه خاص.

ويتحدث هذا التقرير الذى صدر فى أغسطس ٢٠٠٢ عن مظاهر التوتر بين الأوروبيين والمسلمين، ويؤكد أن الأمور وصلت إلى مرحلة تفوق كل ما كان قبلها، مما يقتضى بذل الجهود والقيام بالمبادرات لتهدئة هذه الحالة من الكراهية والاعتداءات التى يتعرض لها المسلمون، ويقدم التقرير تحليلا للاعتداءات التى وقعت على المسلمين فى كل دولة من دول الاتحاد الأوروبى والتى تمثل اعتداءات على حقوق الإنسان، ويسجل قيام بعض الدول الأوروبية بمحاولات لتطويق ومنع تفاقم هذه الحالة.

وفى هامبورج بألمانيا جرت محاكمة منير المتصدق وهو شاب مغربى متهم بالإرهاب والانضمام إلى تنظيم القاعدة والتدريب فى معسكراتها فى أفغانستان، فتحولت المحاكمة من اتهام لشخص إلى اتهام بالإرهاب لعموم المسلمين وللدين الإسلامى، وحين وصفت تريستانا مور مراسلة الإذاعة البريطانية جو المحاكمة قالت: إن وسائل الإعلام العالمية توافدت على تلك المدينة الألمانية المشهورة تاريخيا بتقاليدها الليبرالية، ولكنها أصبحت مشهورة باستضافتها لمجموعة من الإرهابيين عاشوا فيها سنين دون أن يلفتوا الأنظار، ووصفت تجمع حشود من قوات الشرطة المجهزة تجهيزا كاملا بمعدات مكافحة الشغب وملئوا الشوارع المحيطة بالمحكمة، ووضعوا المتهم فى قفص زجاجى مقاوم للرصاص، وسادت فكرة أن مسجد القدس فى الحى الإسلامى فى هامبورج هو المكان الذى يلقن فيه الشباب فكر التشدد والإرهاب، كما انتشرت فكرة أن (كل مسلم هو مشروع إرهابى) وقال أحد المسلمين لمراسلة الإذاعة البريطانية: إن الرئيس الأمريكى بوش يشعل النار بما يسميه الحرب على الإرهاب ولكن المسلمين الأبرياء يعانون. وسمعت المراسلة أيضا من يقول: إن كل ما يفعله المسلمون هو خلق المشاكل، كما سمعت كذلك أن المسلمين غير موثوق فيهم فى أى مكان يوجدون فيه وأن الغضب يولد الانتقام وأن المتهم قد يكون مجنونا، ولكنٍ انظر إلى الرئيس بوش ورئيس الوزراء البريطانى تونى بلير، انهما أيضا مجنونان، إنهما يخططان لحرب ثانية ضد مسلمين.. أليس هذا جنونا ؟.

وما سمعته مراسلة الإذاعة البريطانية يعكس حالة التوتر والشكوك والغضب على الجانبين.

وربما كان عنوان المقال الذى نشرته صحيفة (لاستامبا) الإيطالية يوم ٨ سبتمبر ٢٠٠٢ معبرا عن الحالة التى يعانى منها المسلمون فى الغرب فقد كان عنوان المقال (حرب ضد الإرهاب أم ضد الإسلام) وقالت فيه: إن الدول الأوربية والولايات المتحدة اتخذت قرارا بالحرب ضد الإرهاب، دون أن تكون هذه الحرب موجهة إلى الإرهاب من جانب مجموعات الباسك فى أسبانيا، أو جماعات الإرهاب وعصابات المخدرات فى كولومبيا، أو جماعات التأميل فى سرى لانكا، أو الإرهاب فى أيرلندا، ولكن هذه الحرب موجهة فقط إلى الإرهاب الإسلامى، دون تحديد لمفهوم الإرهاب، وهل تعتبر كل صورة من صور العنف أو التهديد بالعنف إرهابا إذا كانت لتحقيق أهداف سياسية ؟.. فإذا كان الأمر كذلك فسوف يعتبر إرهابا قصف الأحياء السكنية فى لندن فى الحرب العالمية الثانية، وإلقاء أمريكا القنبلة الذرية على هيروشيما، وإذا اندرج تحت مفهوم الإرهاب النضال المسلح لحركات التحرير الوطنى، فسوف يعتبر إرهابا نضال الأفغان ضد الاحتلال السوفيتى الذى كانت ترعاه وتدعمه الولايات المتحدة.. وسوف تعتبر المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال الألمانى إرهابًا.. واليوم توجه الحرب ضد الإرهاب وضد التهديد الإرهابى الذى يطلقون عليه (الإرهاب الإسلامى) الموجه إلى الولايات المتحدة والعالم الغربى فقط، أما (الإرهاب الإسلامى) الموجه إلى أى جهة أخرى فلا يهم!.. ومنذ أعوام والمذابح دائرة فى الجزائر بلا رحمة، وبدون أن يتخذ المجتمع الدولى أية مبادرات لوضع نهاية لها، وقد أصدر (والتر لاكور) كتابا ذكر فيه أن (الإسلام) متورط فى ستة عشر نزاعا من العشرين نزاعا التى تفجرت فى أنحاء متفرقة من العالم خلال عام ٢٠٠٠ فقط. أما مؤسسة (بيت الحرية) الأمريكية التى تعد تقاريرها عن حقوق الإنسان فى العالم فقد ذكرت فى عام ٢٠٠٠ أنه من بين ٥١ دولة (محرومة من الحرية)فى العالم توجد ٤٦ دولة كل سكانها أو جزء كبير من سكانها يعتنق الدين الإسلامى. كما لو كان هناك ارتباط بين الإسلام وغياب الديمقراطية، وبين الإسلام والإرهاب وبين الإسلام ومعاداة الغرب.

وفى هذا المقال بقلم بوريس بيانكيرى يقول: أن الإطار العام والفلسفى للحرب ضد الإرهاب ليس كل شىء، ولكن الأهم هو العلاقة بين العالم الإسلامى والعالم

غير الإسلامى، علما بأن العالم الإسلامى فى داخله جماعات متطرفة وأصولية تهدف إلى توجيه الضربات إلى القيم الغربية، وفرض القانون الإسلامى والقيم الإسلامية فى جميع أرجاء العالم عن طريق القوة و (الجهاد)، وهكذا بعد أفول الاستعمار الاستيطانى يزداد اليوم تأثير ونفوذ الإسلام فى العالم بصورة تفوق العادة، وسكان العام الإسلامى يزدادون، ويتغلغلون فى عديد من الدول خارج العالم الإسلامى، وهناك من يؤكد أن التشدد الإسلامى ينمو ويزداد، ويكسب تعاطف الطبقات الشعبية، كما أن هناك من يرى أن الدول الإسلامية المعتدلة تتعرض للخطر بينما هى التى تقوم بالدور الأساسى فى تحقيق التوازنات السياسية والاقتصادية.

وفى النهاية يقول المقال: إن أحداث ١١ سبتمبر جعلتنا نحدد التساؤلات دون التوصل إلى إجابات لها، ويقول المتشائمون فى الغرب: إنه فى جميع المناطق التى يتجاور فيها الإسلام مع الثقافات الأخرى تكون الجماعات الإسلامية المتطرفة عدوانية بصورة لا يمكن تجاهل أو تقليل حجمها، والتحليلات متناقضة تدل على أننا وسط مستنقع، وأننا أمام منافسة بين الثقافات المختلفة، وهذا هو الدرس الأول للحادى عشر من سبتمبر !

وفى فرنسا من يرى أن الدرس الثانى لأحداث سبتمبر من وجهة نظرهم هو استحالة أو صعوبة التعايش مع الإسلام، وقد عبرت عن هذا الاتجاه صحيفة الفيجارو الشهيرة فى عددها الصادر يوم ١١ يوليو ٢٠٠٢ فى مقال بقلم لور موندوفيل بعنوان (الأوروبيون يتساءلون عن كيفية التعايش مع الإسلام) يقول فيه: إن الأوربيين يشعرون منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر بأنهم لا يفهمون حقيقة التهديد الإسلامى، وهذا ما جعل هذا التهديد الإسلامى محور اهتمام الحكومات فى أنحاء أوروبا، ويزداد التركيز على هذا التهديد تحت ضغط الرأى العام، والرغبة فى ضبط تدفق الهجرة من الدول الإسلامية إلى أوروبا، حتى وصل المسلمون إلى بلاد الشمال مثل الدانمرك، وهولندا، والسويد، وهى بلاد كانت تعتبر دائما ومنذ أمد بعيد ملجأ آمنا ومتساهلا لكل القادمين إليها سواء كانوا سياسيين أم غير سياسيين، ولكن الأمر اختلف بعد ١١ سبتمبر، حتى إن الوزير الهولندى روجين فان بوكستل صرح لمراسل صحيفة الفيجارو عقب

خروجه من اجتماع كان مخصصا لموضوع المهاجرين إلى هولندا فقال: إن هناك اتفاقا فى وجهات النظر بين وزراء الاتحاد الأوربى فى هذا الاجتماع على ضرورة معرفة (من هم الأعداء)وذلك بواسطة أجهزة المخابرات للبحث عن المشتبه فيهم والمشكوك فى أمرهم. وقالت الفيجارو: إن المخابرات الهولندية وضعت أجهزة تسجيل بالصوت والصورة سرا فى مساجد هولندا، وبثت إحدى قنوات التليفزيون ذات يوم تسجيلات لما يجرى داخل أربعة مساجد، وكان أحد الأئمة يدعو للتخلص من الرئيس الأمريكى جورج بوش ورئيس الوزراء الإسرائيلى أريئيل شارون. وإمام آخر كان يشيد بالعمليات الاستشهادية الفلسطينية. وبعد ذلك استدعى الأئمة الأربعة إلى تحقيق قضائى، وطلب البرلمان الهولندى إجراء دراسة متعمقة عن الإسلام لتطويق المسلمين فى هولندا.

وقالت الفيجارو فى هذا المقال: إن مشكلة الحكومة الفرنسية مع المسلمين المقيمين فى فرنسا أنها لا تجد هيئة أو شخصًا يمثل المسلمين يمكن التحدث معه، وقد طلب وزير الداخلية من المسلمين تنظيم تمثيلهم فى فرنسا وانتخاب مجلس لتمثيل الثقافة الإسلامية، ولكن المسلمين منقسمون ولا يتفقون على شخص واحد أو هيئة واحدة. وقالت صحيفة الفيجارو: إن المعارضة شديدة من جانب الحكومة لإقامة معاهد لإعداد الأئمة المسلمين. كذلك واجهت المعارضة فى فرنسا الدعوة التى نادى فيها أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة فريبورج الفرنسية لتجميع المسلمين فى فرنسا بهدف الحفاظ على هويتهم الإسلامية والتعايش مع المجتمعات التى يقيمون فيها فى نفس الوقت.

ونفس الاتجاه نجد له أصداء فى بريطانيا. وعلى سبيل المثال نشرت صحيفة هيرالد تريبيون يوم ١٤ أكتوبر ٢٠٠٢ مقالا بقلم جيرشوم جورينبرج بعنوان (انظر من يرقد مع اليمين المسيحى ؟) قال فيه: إن الائتلاف المسيحى فى أمريكا يساند إسرائيل بقوة، وينظم المسيرات التى تضم الآلاف لإعلان تأييدهم لها. وبعض اليهود الأمريكيين ومنهم الزعماء الذين لم يقبلوا من قبل أن تكون لهم صلة أو علاقة باليمين المسيحى، لكنهم يشيرون الآن إلى وجود تحالف سياسى جديد ومهم بين اليهود واليمين المسيحى فى أمريكا. ويقولون: إن إسرائيل لابد أن ترحب بمساعدة هذه الجماعات المسيحية التى تعلن صراحة عن حبها للدولة

اليهودية، ويقول جيرشوم جورينبرج: إن هذه العلاقة فى أمريكا بين إسرائيل واليهود من ناحية وتيار اليمين المسيحى من ناحية أخرى هى فى حقيقتها علاقة استغلالية غريبة، لأن مبادئ الإنجيليين المحافظين تمثل من حيث المبدأ مشكلة للإسرائيليين ولليهود الأمريكيين، فى مقابل فائدة وهمية قصيرة الأجل، ولذلك فإن من الأفضل لليهود أن يتعاملوا مع الإنجيليين وفقا للمثل العبرى القائل (تعامل مع الآخر وتشكك فيه) بقبول هذا التحالف. وفى نفس الوقت تعريف الجماهير اليهودية بأوجه الاختلاف بينهم وبين اليمين المسيحى حتى ولو كانوا فى بعض الأحيان يتبعون نفس السياسات التى يتبعها اليهود.

ويقول المقال: إن وجهة نظر اليمين المسيحى تجاه إسرائيل تنبع من ازدواج الموقف اللاهوتى لليمين المسيحى، فقد كان لهم من قبل موقف مناهض لليهود، كانوا يعتبرون الشعب اليهودى شعبا مصابا بالعمى الروحى لعدم اعترافه بالمسيح. ولكن تيار اليمين المسيحى فى ذات الوقت يقول: إن الوعود الإلهية لليهود وعود مباركة، ومبارك كل من يؤيد إعادتهم إلى أرضهم، واليمين المسيحى يعتبر الوجود الإسرائيلى فى حد ذاته دليلا على تحقق نبوءات التوراة وبخاصة النبوءة التى تقول (إما أن يموت اليهود أو يعترفوا بالمسيح) فاليمين المسيحى يحب إسرائيل كتأكيد للعقيدة المسيحية والأصولية المسيحية، ولذلك أعلن القس جيرى فالويل أن مولد دولة إسرائيل من أكثر الدلائل المثيرة التى تشير إلى العودة الوشيكة للمسيح المنتظر.. وقال البروتستانتى جاك ميلر: إن إسرائيل تلقى تأييدا من جانب المسيحيين الأصوليين فى أمريكا أكبر مما تلقاه من اليهود أنفسهم، لكنه أيضاً أكد أن محرقة (أوشفيتز) التى أعدم فيها هتلر اليهود كانت مجرد مقدمة لما سوف يحدث لليهود عند اقتراب نهاية العالم.

ويقول اليهود الذين يدعون إلى مزيد من العمل جنباً إلى جنب مع اليمين المسيحى: إن هذه الفكرة لا تمنع من التعاون مع اليمين المسيحى. وكتب ابراهام فوكسمان مدير رابطة مكافحة التشهير: إن هذه المعتقدات الدينية تتحدث عن مستقبل مجهول، بينما يقدم لنا هؤلاء المسيحيون تأييدهم الآن، ويخطئ الذين يرون أنه سيأتى يوم سيكون على اليهود فيه إما أن يؤمنوا بالمسيح وإما أن يقبلوا الموت، لأنهم يعيشون فى عالم أصبح مختلفا كل الاختلاف.

يقول جيرشوم جورينبرج: إن اليهود عندما يتجاهلون هذا الفكر اللاهوتى المسيحى فإنهم يحطون من قدر أنفسهم ويهبطون إلى مستوى الإنجيليين المحافظين. وهم أيضا يخاطرون بإهدار سنوات من الحوار بينهم وبين الكاثوليك والبروتستانت الذين اضطلعوا بالمهمة الصعبة لإعادة تقويم الموقف المسيحى تجاه اليهود، وسيصبح من الصعب على اليهود تأكيد هذا التقويم فى حالة عمل الجماعات اليهودية البارزة مع الجماعات المسيحية التى تنكر اليهودية ولا تعترف بها.. هل الأزمة الإسرائيلية هى التى تبرر لإسرائيل تجاهل هذه الاعتبارات ذات الجذور الممتدة فى الزمان لكى تضمن تأييدا مباشرا وتكتيكا كما يقول البعض ؟.

ويقول الكاتب أيضاً: إن موقف اليمين المسيحى يمثله ويفسره من ناحية أخرى خطاب السيناتور إنهوف أمام مجلس الشيوخ فى مارس ٢٠٠٢ وقال فيه إن على إسرائيل أن تحتفظ بالضفة الغربية لأن الله ذكر هذا، وهذا الموقف من جانب السيناتور إنهوف وأمثاله لا يعتبر فقط تأييدا لإسرائيل ولكنه أيضاً تأييد للسياسات المتشددة التى تسمى (الأصولية اللاهوتية المسيحية).. واليهود من جانبهم لديهم كل الأسباب التى تدفعهم للتحدث مع الإنجيليين المحافظين فى حوار عقائدى صريح مباشر يحدد بوضوح نقاط الخلاف ونقاط الاتفاق.

وهكذا نفهم المعنى الذى قصده الكاتب - وهو بالمناسبة يهودى ويعيش فى القدس - وما يقصده هو أن هناك تحالفاً بين اليهود والإسرائيليين من ناحية واليمين المسيحى والأصوليين فى المذهبين البروتستانتى والإنجيلى فى أمريكا من ناحية أخرى، وأن هذا التحالف أساسه الإيمان بصدق النبوءات الخاصة بوعد الله لليهود بأن يعطيهم هذه الأرض !.

هل يدرك العرب والمسلمون هذه الحقيقة التى يرددها اليهود والمسيحيون الأمريكيون وهى حقيقة تضيف عاملا عقائديا فى العلاقة بين إسرائيل وأمريكا يضاف إلى العوامل السياسية؟!.

والصورة التى رسمها روى هاترسلى عن حال المسلمين فى بريطانيا قد تضيف جديدا فى فهم مشاعرهم، وهم يعيشون فى مجتمع يرفض اندماجهم فيه، وفى

نفس الوقت يعيب عليهم البريطانيون عدم قدرتهم على التكيف والاندماج فى مجتمع غربى، وهم يحملون الجنسية البريطانية ولكن يظل تصنيفهم فى المجتمع على أنهم (المهاجرون).

ويقول روى هاترسلى فى مقاله المنشور فى صحيفة التايمز البريطانية يوم ٢١ مايو ٢٠٠١ بعنوان (تصنيف مسلمى بريطانيا يلهب المشاعر) يقول فيه: إن مصطلح (مهاجر)يثير حنق الشباب والفتيات المسلمين الذين ولدوا فى بريطانيا، واكتسبوا أغلب العادات البريطانية، وإن كان الجيل الأول من المسلمين المهاجرين قد قبلوا التمييز فى المعاملة، وعملوا بأجور أقل فى نفس العمل الذى يقوم به البريطانيون، وعاشوا فى مساكن رديئة، وعوملوا بدون أقل قدر من الاحترام، فإن أحفادهم تدفعهم نشأتهم البريطانية إلى توقع الأفضل والمطالبة به. والبريطانيون يتحدثون عن المسلمين وكأنهم جميعا من جنس واحد ولهم خصائص واحدة. وهذا فى حد ذاته نوع من التنميط العرقى، وينطوى على تحامل قد لا يكون متعمدا إلا أنه فى غاية الخطورة. لأن المسلمين فى بريطانيا من جذور اجتماعية وثقافية مختلفة، بحيث لا يستطيع المسلم المهاجر إلى بريطانيا من أوغندا مصاحبة مسلم مهاجر من باكستان مثلا، وإن كان هناك أمور مشتركة بين الجميع مثل تحريم شرب الخمر ولحم الخنزير وصيام شهر رمضان، إلا أنهم بعد ذلك مختلفون تبعا للخصائص والموروثات الخاصة بالدول التى جاءوا منها..

ويصف روى هاترسلى عضو مجلس العموم السابق ما حدث بعد ظهور رواية سلمان رشدى (آيات شيطانية) فقد أحرق المسلمون صورته خارج المساجد فى بعض أنحاء بريطانيا، وقذفوا بالحجارة المكتبات التى تعرض هذه الرواية، أما المسلمون من سكان (سبارك بروك) وأصولهم من كشمير فقد دعوا إلى اجتماع عبروا فيه عن الغضب. والمسلمون القادمون من بنجلاديش وهم من أصول ريفية فلم يكن من اليسير عليهم التأقلم على الحياة الأوربية فى بريطانيا. والشباب المنحدر من المهاجرين من كشمير وباكستان يتأرجحون الآن حول الخطوط العرقية الفاصلة، وعبر عن هذه الحالة المهندس خالد محمد مرشح حزب العمال فى

(بيرى بار) بقوله: (من الممكن التأقلم مع المجتمع البريطانى دون الذوبان الكامل فيه)، وكان برنامجه الانتخابى تمثيل المسلمين فى بريطانيا فى الشكوى من سوء أداء المدارس فى أحياء المسلمين، ومشكلة الفقر بعد التقاعد. وقال روى هاترسلى فى مقاله: إن (التهميش)هو المشكلة الحقيقية للمسلمين فى بريطانيا.

والصحف الإيطالية والأمريكية والعربية تتحدث عن الكاتبة الإيطالية التى تعيش فى نيويورك أوريانا فالاتشى وقد اشتهرت فى أوربا بعد صدور كتابها (الغضب والكبرياء) وبعد توالى نشر مقالاتها التى تناصب العرب والمسلمين العداء وتكيل لهم الشتائم بلغة هابطة. وبعد ١١ سبتمبر كتبت مقالا جديدا للهجوم على الإسلام نشرته صحيفة (كوريرا دى لاسيرا) أشهر الصحف الإيطالية على صفحة كاملة تحت عنوان (لنتذكر) تربط فيه بين مشهد انهيار برجى مركز التجارة العالمى بمشهد القتلى الأمريكيين فى حرب فيتنام، وتتساءل عن أسباب الغيرة والكراهية تجاه أمريكا، وتجيب: إن الذين يكرهون أمريكا إنما يكرهونها لأنها مجتمع يقوم على الحرية والمساواة، منذ ثورة الاستقلال الأمريكية التى تفجرت عام ١٧٧٦ قبل الثورة الفرنسية،وكان زعماؤها - ابتداء من القس بنجامين فرانكلين إلى توماس جيفرسون وجورج واشنطن - هم المدافعين عن هذه القيم الأمريكية من خلال (إعلان الاستقلال) الذى قام الأوربيون بتقليده بعد ذلك. وهذا الإعلان هو الذى حول الرعايا إلى مواطنين وجعل الشرائم شعبا له كرامة، وامتد أثره إلى شعوب العالم لتحريضهم على التمرد على الاستبداد، والمطالبة بحكم أنفسهم بأنفسهم، والحرص على الحرية الفردية بعكس الشيوعية التى سحقت الفرد لإعلاء كلمة الدولة وحولت الجميع إلى فقراء. أما فى أمريكا فكانت ثورة الرعاع من أجل أن يتساوى البيض والسود والصفر ويتساوى الأغنياء والفقراء.. وأمام إرادة الشعوب فى الحرية خسر البريطانيون ، والألمان، والروس، والنازيون ، والفاشيون، والشيوعيون والفيتناميون.

ثم تصل الكاتبة إلى الإسلام فتقول: إن المشكلة هى أن (أبناء الله)ليسوا من المسلمين، ثم توجه إلى بابا الفاتيكان سؤالا: هل صحيح أنك طلبت من المسلمين أن يصفحوا عن الحروب الصليبية التى قام بها أسلافك من أجل استعادة قبر المسيح

المقدس؟.. وهل طلبوا الصفح منك.. الصفح عن اغتصابك لهذا القبر المقدس؟.. وهل سألوك الصفح عن إخضاعهم شبه جزيرة ايبريا المسيحية التى تشمل البرتغال وثلاثة أرباع أسبانيا واستمر استعمارهم لها طوال سبعة قرون، ولو لم تتحرك الملكة ايزابيلا والملك فرديناندو لطردهم فى عام ١٤٩٠ لكنا جميعا الآن نتحدث اللغة العربية؟.. وهم أيضاً لم يعتذروا عن الجرائم التى ارتكبوها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر حيث كانوا يخطفون أجدادى ويضعون السلاسل فى أقدامهم وأيديهم ورقابهم وينقلونهم إلى الجزائر وتونس وطنجة والقسطنطينية لبيعهم فى الأسواق ليكونوا عبيدا، ويتخذون الفتيات خليلات، إلى أن تأسست جمعيات تحرير العبيد البيض فى الجزائر والمغرب وتركيا وهذه الجمعيات أسسها الرهبان الإيطاليون، وكانت الكنيسة الكاثوليكية هى التى تفاوضت من أجل الإفراج عن هؤلاء العبيد ودفع الفدية لهم.

وتستمر أوريانا فالاتشى فى مقالها فى توجيه خطابها إلى بابا روما فتقول: إنك تحيرنى يا قداسة البابا،فقد عملت كثيرا من أجل إسقاط الاتحاد السوفيتى، وكان لك الفضل فى تحقيق هذه المعجزة التى تعيشها أوربا بعد أن تحررت من الشيوعية. وروسيا تطلب الدخول فى حلف الأطلنطى، ولينينجراد استعادت اسمها القديم بطرسبرج، والرئيس الروسى بوتين أصبح صديقا للرئيس الأمريكى بوش، فهل بعد كل هذا تقوم بمغازلة المسلمين وهم أسوأ ألف مرة من ستالين، ويريدون إنشاء مسجد فى الفاتيكان؟.. يا قداسة البابا أنت تذكرنى برجال البنوك من اليهود والألمان الذين كانوا يقرضون هتلر الأموال طلبا للنجاة، ثم وجدوا أنفسهم بعد سنوات قليلة فى أفران الغاز !.

ثم تقول: إننا نعرف اليوم كل شىء عن الأصولية الإسلامية، وبعد مرور شهرين فقط على كارثة نيويورك برهن ابن لادن على أننى لم أخطئ عندما أعلنت فى كتابى (الغضب والكبرياء)أنكم لا تفهمون، ولا تريدون أن تفهموا. إن هناك حربا صليبية مضادة.. حرب أديان يطلقون عليها.. الجهاد أو الحرب المقدسة. والغرب بالنسبة لهم - يجب أن يفتحه المسلمون، ويجب أن يعاقب المسلمون الغرب ويجبره على الخضوع.. وقد برهن ابن لادن على أن هذه الحرب حرب أديان، وعلى كل العرب والمسلمين أن يقفوا معه ومن يقف على الحياد فهو كافر.

وأن من يقبل شرعية المؤسسات الدولية فإنه كافر لأنه يتخلى عن الشرعية الوحيدة الصحيحة وهى الشرعية المستندة إلى القرآن.

ثم تمضى فى حَبْكِ أكاذيبها فتقول: إن الكراهية ضد الغرب تزداد وتشتعل مثل النار التى تغذيها الرياح. وتتضاعف أعداد الأصوليين الإسلاميين ثم تتكاثر مثل الخلايا السرطانية التى تبدأ بخلية واحدة ثم يزداد العدد إلى ما لا نهاية .. وهذه الكراهية للغرب تمتد من أفغانستان إلى السودان، ومن إندونيسيا إلى باكستان، ومن ماليزيا إلى إيران، ومن مصر إلى العراق، ومن الجزائر إلى السنغال، ومن سوريا إلى كينيا، ومن ليبيا إلى تشاد، ومن لبنان إلى المغرب، ومن فلسطين إلى اليمن، ومن السعودية إلى الصومال ..!..

ومن لا يصدق ذلك فعليه أن يتأمل فى الحشود التى تظهر على شاشات التليفزيون التى تعج بها شوارع إسلام أباد وميادين نيروبى، ومساجد طهران والوجوه المتوحشة، وقبضات الأيدى المهددة، وصور ابن لادن، والنار التى تحرق العلم الأمريكى،والدمى التى تحمل ملامح بوش، وهم يصيحون : الله أكبر.. الله أكبر.. الجهاد .. الجهاد .. إنهم ليسوا قلة من المتطرفين والمتعصبين، بل هم ملايين من المتطرفين والمتعصبين.. مما يدل على أن ابن لادن ليس إلا قمة جبل الجليد الذى يظهر على السطح، وفى الأعماق ملايين يعانون من الفقر وينعم زعماؤهم بالثراء، ويعيشون فى ظلمات العصور الوسطى، و ٦٠٪ منهم على الأقل أميون، ويرفضون، أو يجهلون قيم الحضارة، والحرية، والتقدم ، والعدل، والديمقراطية، هؤلاء المسلمون يشعرون بالغيرة من الغربيين، ويبهرهم نظام الحياة الغربية، ويتهمون الغرب بأنه السبب فى الفقر المادى والفكرى الذى يعيشون فيه.

ولا تكتفى أوريانا فالاتشى بكل هذه الأكاذيب والاتهامات الملفقة وتضيف: يخطئ من يظن أن (الحرب المقدسة)انتهت مع تشتت نظام طالبان فى أفغانستان فى نوفمبر ٢٠٠١، وبعد خروج النساء الأفغانيات فى كابول بدون (النقاب)ويذهبن إلى المدارس وإلى الأطباء ومصففى الشعر، وأزواجهن وقد حلقوا

ذقونهم بعد هزيمة طالبان، كما رفع الإيطاليون شارة النظام الفاشى بعد هزيمة موسوليني.. يخطئ من يظن أن ذلك يعنى أن الأمر انتهى .. لأن أفغانستان تعاقبت عليها فى السنوات العشرين الماضية مراحل حلقوا فيها الذقون ثم عادت مرة أخرى، وتخلت فيها النساء عن النقاب ثم عدن إليه مرة أخرى.. وتذكروا أن الذين فجروا مركز التجارة العالمى فى سبتمبر ٢٠٠١ لم يكن من بينهم أفغانى واحد، مما يعنى أن الأصوليين منتشرون ولهم مراكز قيادة وتدريب فى كل مكان غير أفغانستان.

وتصل إلى أخطر من كل ما قالته حين تختم مقالها بأن أفغانستان فى شمال الجمهوريات الإسلامية للاتحاد السوفيتى السابق، وفى الغرب إيران وتجاورها العراق التى تقع على حدود سوريا ثم لبنان وبجوارها الأردن ثم السعودية، وفيما وراء البحر الأحمر القارة الأفريقية بدولها الإسلامية: مصر وليبيا والصومال وشبابها الذين يهللون للحرب المقدسة، مما يدل على أن الصدام بيننا وبينهم ليس صداما عسكريا، وإنما هو صدام ثقافى ودينى، ولذلك فإن انتصاراتنا العسكرية لن توقف هجمات الإرهاب بل سوف تشجعها وتزيد من حدتها.. إن الأسوأ بالنسبة لنا لم يأت بعد..

من قرأ كل هذا الهراء الذى يقطر حقدا وكراهية ويحرض على الكراهية والعداء للمسلمين ويسعى إلى جعل الصراع دينيا.. ليصبح صراعا مستمرا على مدى الدهر ولا ينتهى ..؟

من صاحب المصلحة فى ذلك ؟..

وقبل أن يتساءل المسلمون لماذا كل هذه الكراهية فى الغرب للإسلام والمسلمين فإن الغربيين هم الذين يتساءلون: لماذا يكرهنا العرب والمسلمون، وبدلا من أن يبحث المسلمون عن (ميراث الكراهية) عبر القرون فإن الغربيين هم الذين يبحثون عن هذا الميراث فى الجانب الإسلامى! ! أى إن صناعة الكراهية فى الغرب تعمل فى اتجاهين: فى اتجاه تشويه الإسلام أمام الرأى العام الغربى واتجاه لتوجيه الاتهام إلى المسلمين بأنهم هم الذين يكرهون الغرب، وهذا ما فعلته صحيفة هيرالد تريبيون الأمريكية فى عددها الصادر يوم ١٢ سبتمبر ٢٠٠٢ ففى مقال

بعنوان (ميراث من الكراهية)بقلم الصهيونى المعروف برنارد لويس قال: إن المسلمين يرون أن الإسلام كان أعظم حضارة على وجه الأرض وحمل الحضارة والدين إلى الشعوب الهمجية الكافرة التى كانت تعيش خارج حدود العالم الإسلامى، ولكن كل شىء تبدل بعد ذلك،وبعد أن كان المسلمون يقومون بغزو العالم المسيحى ويسيطرون عليه تمكنت القوى المسيحية من غزو المسلمين والسيطرة عليهم، وتزايد لدى المسلمين الشعور بالإحباط على مدى قرون ورأوا فى هذا التغير انقلابا فى قانون السماء وقانون الطبيعة. وبلغ هذا الشعور بالإحباط ذروته فى وقتنا الحاضر وتظهر هذه المشاعر فى المناطق العديدة التى يتصادم فيها المسلمون مع غير المسلمين كما حدث فى البوسنة، وكوسوفا، والشيشان، وإسرائيل، والسودان، وكشمير، والفلبين، وغيرها، والهدف الرئيسى لحالة الغضب هو الولايات المتحدة باعتبارها زعيمة العالم المتحرر فى الغرب وزعيمة العالم المسيحى، والتى يعتبرها البعض زعيمة عالم الملحدين.

ويُرجع برنارد لويس ميراث الكراهية للغرب فى العالم الإسلامى إلى أن رجال السياسة فى العالم العربى وبعض دول العالم الثالث الأخرى، استطاعوا أن يحققوا بعض مآربهم بالانحياز إلى إحدى القوى العالمية ضد الأخرى، من ذلك انحيازهم إلى فرنسا ضد بريطانيا، وانحيازهم لقوات المحور فى الحرب العالمية الثانية ضد الحلفاء الغربيين، وانحيازهم للاتحاد السوفيتى ضد الولايات المتحدة... ورغم أن المسرح تغير بعد سقوط الاتحاد السوفيتى وسيطرة قوة عظمى واحدة على العالم هى الولايات المتحدة فإن السيناريو بقى عندهم كما هو، وبعض الزعماء العرب يبذلون جهودا كبيرة من أجل إيجاد بديل للاتحاد السوفيتى ليكون هذا البديل نصيرا وراعيا لتوجهاتهم المناوئة لأمريكا، فى الوقت الذى تبنّى فيه فريق رؤية مغايرة، وأبرزهم أسامة بن لادن. ورؤية هؤلاء تتلخص فى أنهم حاربوا حربا مقدسة ضد الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان وانتصروا عليه، والاتحاد السوفيتى كان إحدى القوتين الملحدتين، كما أنه كان القوة الأكثر غلظة، وبعد ذلك فإن محاربة الولايات المتحدة قد تكون أيسر بكثير وهى الدولة اللينة المدللة، ويضيف برنارد لويس أن روح الكراهية ظلت تنمو باطراد لسنوات طويلة، وتفاقمت حدتها نتيجة لتصرفات بعض الزعماء الذين تصفهم أمريكا

بأنهم أصدقاؤها وحلفاؤها وتراهم شعوبهم دمى متحركة تمسك أمريكا بخيوطها. وهنا - كما يقول - يبرز تساؤل على جانب كبير من الأهمية، رغم أنه لا يثار كثيرا، يتعلق بالسبب وراء ازدرائهم لأمريكا على هذا النحو، وهو الأسلوب الذى تنتهجه أمريكا ويصفونه بأنه أسلوب بذىء، وفاسد، وخطير، لما له من تأثير فى إفساد المجتمعات الإسلامية، وماذا كان يعنى آية الله الخومينى بتكراره وصف أمريكا بأنها (الشيطان الأكبر)؟.. والشيطان ليس مستعمراً، أو مستغلاً ولا غازياً للآخرين، ولكنه يضل، ويغوى، ويوسوس فى الصدور كما جاء فى القرآن. وقد يعبر عن هذا المفهوم مقال نشر فى جريدة عربية دفاعا عن تعدد الزوجات قال كاتبه: إن تعدد الزوجات يعتبر جريمة يعاقب عليها القانون فى الدول الغربية، ولكن ذلك يعتبر منافيا للطبيعة البشرية واحتياجاتها، لأن الرجال لا يقربون نساءهم عشرة أيام كل شهر أثناء الدورة الشهرية، وتطول هذه المدة أثناء فترة الحمل، وفى الغرب يباح الزنا والدعارة، أما فى الإسلام فالبديل هو تعدد الزوجات، ويؤكد الكاتب على أن هذا البديل يوفر للزوجة مكانة محترمة، ويعطى لأبنائها صفة شرعية.

ويعلق برنارد لويس بقوله: قد نوافق على ذلك إذا كنا نوافق الكاتب على رأيه فى العلاقة بين الرجل والمرأة، ويقصد بذلك أن رؤية المسلمين لهذه العلاقة محصورة فى الجنس بينما هى فى الغرب علاقة إنسانية أولا ويأتى الجنس فى المرتبة الثانية. برنارد لويس يشير بخبث إلى ما يتكرر فى الكتابات الغربية من أن المسلمين حسيون، متعطشون للجنس ولا يرون فى المرأة إنساناً ولكن يرون فيها هدفا جنسيا فحسب.

ويستطرد فى مقاله فيقول: إن النتيجة التى وصل إليها ابن لادن وغيره هى أن الولايات المتحدة صارت ضعيفة ، ومصابة بالذعر ، وعاجزة عن القيام بأى رد فعل. وهكذا جاءت جرائم الحادى عشر من سبتمبر نتيجة لهذا الاعتقاد، وكانت فى نفس الوقت الشرارة الأولى لحملة واسعة النطاق تهدف إلى طرد الأمريكيين وحلفائهم من الجزيرة العربية وبقية الدول الإسلامية، والإطاحة بمؤيدى أمريكا المستبدين، وتمهيد الطريق للصراع العالمى الأخير. ولابد أن الضربة الفعالة التى وجهتها أمريكا لقواعدهم فى أفغانستان كانت صدمة هائلة للمنظمات الإرهابية

دفعتهم إلى تغيير حكمهم على أمريكا بالضعف والتردى الأخلاقى، وعلى أمريكا أن تتأكد من أنهم لن يعودوا إلى حكمهم السابق غير الصحيح على أمريكا لأنهم لا يفهمون كيف تسير الأمور فى مجتمع ديمقراطى.

لا نحتاج إلى القول بأن برنارد لويس صهيونى، وكل كتاباته تقطر سما عندما يتحدث عن العرب والمسلمين، ومع ذلك لابد أن نقرأ ما يكتبه لنرى كيف يفكرون وإلى أى مدى هم بارعون فى المغالطة وقلب الحقائق وتصوير الجلاد على أنه الضحية، والحديث عن الضحية على أنه الجلاد.

ولا أعرف لماذا يركز برنارد لويس دائماً على ما يسميه كراهية العرب والمسلمين لأمريكا، ولا يتحدث عن الكراهية لأمريكا فى أوربا وآسيا وأفريقيا ؟.. ولا يذكر أن أوربا وأمريكا هى التى احتضنت الشيخ عمر عبد الرحمن، وأبا قتادة، وأبو حمزة المصرى وهى التى صنعت أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة، بل هى التى صنعت طالبان أيضا ! وغيرهم..

فى أوربا يرون أن الصفوة السياسية فى أمريكا تنظر إلى أحداث الحادى عشر من سبتمبر على أنها (هدية القدر) والفرصة الفريدة لكى تتأكد زعامة أمريكا للعالم إلى الأبد، بحجة قيادتها للصراع الدولى ضد الإرهاب، ولا أحد يعلم إلى أين سيؤدى هذا الطريق. وأن هذه الأحداث التى وقعت والقوة الأمريكية فى ذروتها تشير إلى بداية الغروب التدريجى الأمريكى، فهذه الحرب ستطلب التعبئة القصوى لموارد أمريكا الاقتصادية والسياسية والعسكرية والمعنوية ولا تريد أمريكا أن تعترف بأن الإرهاب له أسباب، ومادام قد بقيت الأسباب فسوف يستمر وجود الإرهاب، ولذلك فإنها سوف تدفع ثمناً باهظاً لقيادتها لهذه الحرب التى تسميها الحرب على الإرهاب، والخطورة الحقيقية فى استخدام أمريكا للتكنولوجيا المتقدمة لضمان الهيمنة العالمية، ولكن سرعان ما استوعب الإرهابيون هذه التكنولوجيا وبذلك سيكون هؤلاء الأشرار قادرين على إثارة الفوضى فى العالم وفى أمريكا بهذه التكنولوجيا وبتنظيم جديد يعتمد على جماعات سرية عابرة القوميات يصعب اكتشافها والاحتياط من هجماتها إلا عن طريق منظمات مماثلة. وما تفعله أمريكا الآن أقرب إلى ما جرى قبيل الحرب العالمية الأولى وكان السبب فى إشعالها، وأن انهيار أمريكا بنفس الطريقة التى

انهار بها الاتحاد السوفيتى لا يمثل تهديدا كبيرا، ولكنَّ هناك خطرا من نوع آخر. فهناك أمريكيون لديهم مخاوف من الانعزال نتيجة عدم القدرة على تحمل أعباء الهيمنة العالمية، وإذا عادت الولايات المتحدة إلى وعيها فستكون لذلك آثار إيجابية كثيرة على العالم.

هذا ما يقال فى صحف أوربية ولا يحتج عليه الأمريكيون ولكنهم يحتجون على كل كلمة أو حلقة فى مسلسل تليفزيونى أو مقال من عربى أو مسلم !.

وفى جميع دول العالم تقريباً أصوات وأقلام تعبر عن رفض الاتجاه الأمريكى للسيطرة على العالم بالقوة بحجة محاربة الإرهاب. فلماذا تستنكر أمريكا أن يكون فى العالم العربى والإسلامى من يرفض أيضاً هذه الهيمنة. كما أن فيه من يؤيدها على طول الخط؟ أليست أمريكا قلعة حرية الرأى فلماذا تستنكر الرأى حين يصدر عن عربى أو مسلم؟.. ومن يسعى إلى الاحتفاظ بالهوية الوطنية والقومية والإسلامية ويرفض ذوبان حضارته فى حضارة أخرى لماذا تعتبره خطرا عليها ؟ ولماذا ترفض أمريكا دعوة المسلمين والعرب إلى حوار وتعايش الحضارات بديلا من نظريتها المفضلة التى تروج لها بكل الوسائل عن صراع وصدام الحضارات ؟..

أسئلة كثيرة يطرحها المسلمون ولا يجدون من أمريكا إجابة عنها.

حرب عقائد . . أم حرب مصالح ؟

من الصعب . . بل من المستحيل متابعة وحصر ما ينشر من كتب ومقالات ضد الإسلام، تساهم فى تعبئة نفوس الأمريكيين والأوربيين ضد هذا الدين وأهله، تجعلهم يصدقون أنه يمثل خطرا عليهم وعلى العالم.. ومن الصعب كذلك فهم أسباب هذا الإصرار الغريب على صناعة العداء بين المسلمين وشعوب الغرب، ويدعو ذلك إلى التساؤل: هل هى مؤامرة ؟.. وإذا كانت مؤامرة فمن الذى ينسج خيوطها ؟.. ولماذا ؟.. ومن المستفيد منها؟.. وهل يمكن أن تستمر المؤامرة منذ بداية ظهور الإسلام وحتى اليوم ولا تتوقف حتى بعد مرور أكثر من ١٤٠٠ سنة ؟..

وهناك من يرفض فكرة وجود مؤامرة، ويقول: إن المؤامرة ليس لها وجود إلا فى عقول من يصدقون بوجودها، ويقول أيضا: إن التفسير التآمرى للأحداث وللتاريخ هو فى ذاته من علامات التخلف والجهل وعدم القدرة على فهم حقائق الأمور بعقلية علمية .. وإن عقلية التصديق بالخرافات مازالت مسيطرة على الذين يفسرون الأحداث ويرجعون كل مشكلة أو أزمة إلى شياطين المتآمرين بدلا من البحث عن الأسباب الحقيقية لهذه الكراهية.

وكذلك هناك من يقول: إن صورة الإسلام مشوهه لأن واقع المسلمين مشوه ورديء ومتخلف ومليء بالسلبيات. وهذا شيء يجب الاعتراف به وليس من مصلحة المسلمين إنكاره، وأن عدم مساهمة المسلمين فى الحضارة الحديثة حقيقة من حقائق هذا الزمان، فلماذا ننكرها ؟.. ولماذا نقول إن من يذكر هذه الحقائق متآمر علينا ؟.. والأجدر بنا أن نعترف بواقع التخلف وانتشار الجهل، والأمية، والخرافات، والتفكير العشوائى، وعدم القدرة على الوصول إلى إنتاج التكنولوجيا الحديثة، كما فعلت الصين وكوريا وسنغافورة. ويضاف إلى ذلك عدم القدرة على استيعاب العلوم الحديثة، أو تحويل المجتمع الإسلامى إلى مجتمع المعلومات،

أو الدخول فى عالم أصبح الإنتاج الأهم والأعلى قيمة هو إنتاج المعرفة .. ولماذا لا نعترف بأن المسلمين مازالوا يحلمون بالعودة إلى الماضى بدلا من التفكير والعمل للمستقبل وهم سعداء بإقامة مجتمع بدائى فى قلب العالم الإليكترونى ويرفضون ويدينون معطيات الحضارة الحديثة ؟.. هؤلاء الذين يقولون كل ذلك يقولون أيضا: إذا أردتم تصحيح صورة المسلمين فعليكم بتصحيح الأصل أولا، لأن تصحيح الصورة مع بقاء الأصل المشوه لن يحقق شيئا ولن يقنع أحدًا لأنه لن يكون إلا تزويرا وتزييفا ..

ففى مجلة نيوزويك الأمريكية نجد مقالا كتبه زاكارى كاربيل يوم ١٤ يناير ٢٠٠٢ بعنوان (معركة النخبة المحدودة من الخبراء)عن الحرب ضد الإرهاب، وأن المسلمين والعرب فى رأيه هم الذين تقع عليهم وحدهم المسئولية عن انتشار التطرف والعنف فى العالم، وفى رأيه أيضا أنه ليست هناك وسيلة لحماية الغرب من هذا الإرهاب الإسلامى سوى الحرب.. والقوة المسلحة.. والقصف المنتقم!

يقول كاربيل فى مقاله: إن الأزمات الجديدة سوف تكشف عن ظهور خبراء جدد، وفى محاكمة الإرهاب سنرى كثيرين يمثلون الادعاء، ويستخدمون كل وسائل الإعلام وأولها التلفزيون وشبكة سى .إن .إن الإخبارية الأمريكية. وسنرى أيضا كثيرا من المحامين للدفاع. ويضيف كاربيل: إن الأمريكيين اليوم يهتمون بما يقال عن الإسلام، ونتيجة لذلك ظهرت مجموعات من الخبراء ليشرحوا الإسلام للشعب الأمريكى، فنجد أستاذا بجامعة بيرنستون يتحدث فى شبكة تليفزيون B.B.C وأستاذا من جامعة جون هوبكنز يتحدث عن الإسلام على شبكة تلفزيون C.B.S ومدرساً بجامعة جورج تاون يتلقى أسئلة أثناء ظهوره على شبكة سى. إن. إن ويجيب عنها كخبير فى الإسلام.. وهكذا يظهر حشد من الخبراء إلى دائرة الضوء خصوصا بعد هجمات ١١ سبتمبر وخاصة أن القلق لدى الأمريكيين يدفعهم إلى التساؤل: هل هناك ما يمكن أن يحقق الالتقاء بين الإسلام والغرب ولو فى نقاط معينة ؟.. وهل يستطيع العالم أن يتفادى التدمير بهذا

التطرف الانتحارى ؟.. والأمور بالنسبة للرأى العام تستلزم التبسيط، ولذلك يلجأ كثيرون إلى التبسيط لفهم هذا الصراع القائم بين الغرب والمسلمين بالقول بأننا الآن فى مواجهة (معهم)!!

وأستاذ جامعى مثل برنارد لويس يعتبر خبيرا بارزا وهو فى نظر كثيرين فى الغرب عليم بالإسلام، وهو مؤرخ بجامعة بيرنستون، ولد ونشأ فى بريطانيا، ويبلغ من العمر ٨٥ عاما، وله أكثر من عشرين كتابا، وفى كل كتاباته يردد: (إن الإرهاب اليوم ليس إلا جزءا من صراع طويل بين الإسلام والغرب).. وفى مقال له فى صحيفة (نيويورك تايمز)الأمريكية كتب: (إن أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة الذى يعمل بقيادته قد لا يمثلان الإسلام، ولكن أفعالهم جاءت من طبيعة الحضارة الإسلامية).. وبرنارد لويس لديه فكرة راسخة منذ سنوات هى: أن الإسلام قائم على نظام أخلاقى مختلف عن النظام الأخلاقى فى الحضارة اليهودية- المسيحية، ويذكر آيات من القرآن يفسرها على أنها تدعو المسلمين إلى ممارسة العنف ضد غير المسلمين. ولأن برنارد لويس خبير بالتاريخ، وعالم لغويات، ويجيد اللغة العربية إجادة تامة، كما يجيد اللغة التركية ولغات أخرى، فإنه يوجه النقد إلى الباحثين الذين لا يحسنون فهم النصوص العربية الإسلامية. وبعد ١١ سبتمبر أعلن أن هذه الحرب هى حرب بين الأديان وأن موقف أسامة بن لادن وأتباعه يتلخص فى معنى واحد: نحن - المسلمين - ضد الغربيين، ويدعو برنارد لويس الباحثين إلى فهم أهداف هذا الإرهاب، كما يفهمها أصحابه. ولقد هاجمه إدوارد سعيد وقال: إن ما يقوله برنارد لويس عن الإسلام ليس إلا دعايات زائفة وأفكاراً سطحية مثل (الإسلام) فى مقابل (الغرب) وإدوارد سعيد أستاذ الأدب المقارن بجامعة كولومبيا من مواليد فلسطين وتعلم فى القاهرة ويعيش فى الولايات المتحدة منذ سنوات بعيدة ويحمل الجنسية الأمريكية، وهو المدافع القوى عن الحق العربى وعن الإسلام فى مواجهة المستشرقين واللوبى الصهيونى ..

وفى نقده لبرنارد لويس قال إدوارد سعيد : إن ما يقوله برنارد لويس ليس له وجود؛ فليس هناك (نحن) و (هم). والحقيقة الظاهرة الآن أن السياسة

الأمريكية تتسم بالقسوة وتحولت إلى العنف فى أوقات معينة، وهذا ما ينطبق على الصراع مع المسلمين، فإذا لم تقم الحكومات الغربية بحملات عدائية على المسلمين والعرب فلن يحارب أحد ولن يموت أحد من أجل مفاهيم مجردة مثل (الغرب) و (الإسلام)، وأن رؤية العالم على أساس هذا التصنيف الذى يذكره برنارد لويس لا يخدم إلا الذين يسعون إلى التدمير والهيمنة ويقولون إن الإسلام هو (الوحشية) و (النزعة الدموية) لكى يقدموا للغرب المبرر للسيطرة على العالم الإسلامى. وكذلك فإن الذين يرفعون شعار الإسلام للدعوة إلى وصف الغرب بأنه فاسد وكافر ولا يؤمن بالله، كما قال ابن لادن، فهؤلاء أيضا يقومون بالدور الرئيسى لتبرير هجمات كالتى وقعت فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ..

ونعود إلى مقال كاربيل فى نيوزويك فنراه يعلق بعد ذلك بقوله: ليس كل الباحثين فى مواجهات حادة، كما حدث بين إدوارد سعيد وبرنارد لويس.. بل إن هناك من الباحثين من يحاولون البحث عن إجابة للسؤال : لماذا يعانى العالم الإسلامى والشرق الأوسط صعوبات فى التعامل مع العالم الآن ؟.. ولماذا لم تزدهر الديمقراطية فى الشرق الأوسط؟.. ويعلق على ذلك فؤاد عجمى الأستاذ بجامعة جون هوبكنز بالعاصمة الأمريكية واشنطن، وهو عالم اجتماع مميز، ومعلق فى برامج شبكة تلفزيون C.B.S الإخبارية، مولود فى لبنان، ويتساءل أيضا: لماذا يتسم الشرق الأوسط الآن بالجمود ؟.. ويقول: إن من يستطيع الإجابة عن هذا السؤال هم الذين يعيشون فى الشرق الأوسط، ولا يفيد أن تأتى الإجابة من باحث أمريكى أو أوروبى عن طبيعة المشكلة فى العالم العربى، أو فى أفغانستان، لأن العرب والأفغان لن يسمعوا ما يقوله الأمريكيون والأوروبيون، ولأن الأمريكيين والأوروبيين نادرا ما تكون لهم القدرة على فهم العرب والمسلمين فهما صحيحا..وقد كتب فؤاد عجمى مقالا فى نيويورك تايمز قال فيه : (على الأمريكيين أن يقبلوا الحقيقة وهى أنهم أغراب على العالم العربى، وإذا حدث أى تغيير فى العالم العربى لابد أن يأتى من داخله وليس من خارجه، وإن فشل المثقفين فى العالم العربى يرجع إلى أنهم لا ينظرون إلى الداخل ليروا الواقع عندهم بعين ناقدة، ولكنهم ينظرون دائما إلى الخارج وإلقاء اللوم على طرف أجنبى، وتسير الجماهير فى هذا الاتجاه وراء النخبة والمثقفين حتى إن العرب

والمسلمين أصبحوا فى حالة ارتباك ولم يدركوا حقيقة مَنْ هُمْ؟ ومن الذى زج بهم فيما هم فيه؟ وهكذا وقع الجميع فى حالة (خداع النفس).. أما الحل وأما العلاج .. فيأتى حين يتمكن المثقفون العرب من النظر بموضوعية متجردة إلى أوجه القصور الثقافى فى واقعهم، وبذلك يمكنهم النهوض من الحالة التى هم فيها من الركود الاقتصادى، والأمراض الاجتماعية.

أما جون اسبوزيتو الأستاذ بجامعة جورج تاون، وهو كاثوليكى، يرأس مركز التفاهم الإسلامى المسيحى بجامعة جورج تاون بواشنطن، فإنه يقول: ليس هناك إسلام واحد، ولكن هناك أكثر من إسلام، ولا توجد أصولية إسلامية واحدة ولكن توجد أكثر من أصولية إسلامية، وهذا ما يفسر كيف كان آيات الله فى إيران أشد المسلمين انتقادا لفكر طالبان فى أفغانستان. ويقول اسبوزيتو: إن الانقسامات بين الأصوليين الإسلاميين واضحة مثل الانقسامات بين المسيحيين الإنجيليين، وإن كانت الديمقراطية فى العالم الإسلامى تمر بمرحلة عصيبة لكن غياب الديمقراطية ليس له علاقة بالإسلام، ولكن الشرق الأوسط يمر بمرحلة شبيهة بالمرحلة التى مرت بها أوروبا فى بداية عصر النهضة، وكما استغرق انتقال أوروبا من ممالك إقطاعية إلى ديمقراطيات تعتمد على اقتصاديات السوق الحرة زمنا طويلا، فإن تحول العالم الإسلامى لن يتم بصورة سريعة، وسلسة، وسلمية، ولكن التغيير سيحدث على أية حال لا محالة.

وينهى كاربيل مقاله بالقول بأن الذين يتحدثون عن الإسلام على أنهم خبراء فى فهمه ينقسمون إلى قسمين، قسم من نتاج العداوة وخبراء العلاقات العامة المشتغلين بإثارة الكراهية تجاه الإسلام، وهؤلاء لا يتحدثون إلا عن السلبيات والفضائح السياسية فى العالم الإسلامى وينسبونها إلى الإسلام ذاته. وقسم ثان من الباحثين الجادين اكتسبوا الحكمة من الدراسة الجادة للإسلام. والحروب تحتاج إلى الخبراء الحقيقيين كما تحتاج إلى القادة الحقيقيين، وهؤلاء هم الذين يعرفون كيفية إدارة هذا الصراع بين الغرب والإسلام.

هكذا ينتهى زاكارى كاربيل إلى نتيجة مؤداها أن الصراع والحرب بين الغرب والإسلام أمر محتوم، ولذلك يدعو إلى أن يتولى إدارة هذا الصراع، وهذه الحرب الخبراء الحقيقيون الذين يعرفون الإسلام بالدراسة الجادة لسنوات طويلة ولا يكتفون بمجرد توجيه الاتهامات المرسلة !

وفى تعليقه على مقال كاربيل يثير الدكتور حسن وجيه أستاذ اللغويات والتفاوض الدولى عدة ملاحظات، الملحوظة الأولى: أن هذا المقال يؤكد (إعلام القائمة) الشائع فى الإعلام الغربى بخصوص قضايا العرب والمسلمين، وإعلام القائمة هو الإعلام الذى يعتمد على وجود قائمة من (الخبراء)فى الغرب هم الذين يتحدثون دائما عن العرب والإسلام، والإعلام الغربى عادة لا يستعين بغيرهم، وهم يعلمون ما هو مطلوب منهم ويقولون فى وسائل الإعلام ما هو مطلوب، وهؤلاء تحليلاتهم نمطية وأسيرة قوالب ثابتة، وبمجرد ذكر اسم أحدهم تستطيع معرفة ما سيقوله والدكتور حسن وجيه وقد عاش فى الولايات المتحدة عدة سنوات فى البحث والدراسة يؤكد أن الإعلام الأمريكى إعلام موجه، وليس إعلاما حرا كما هو شائع، وهو إعلام أسير لنظام (إعلام القائمة)مما يفرض على العرب والمسلمين أن يوجهوا جهودهم الدبلوماسية والإعلامية الجماعية لكسر احتكارات الإعلام الأمريكى.

ويشير أيضا إلى التبسيط المخل فى الفكر الأمريكى الذى يمثله كاربيل وكثيرون غيره، بالقول مثلا بأن إرهاب اليوم هو جزء من صراع طويل بين الإسلام والغرب، ومثل القول بالثنائية المتعسفة (الإسلام فى مواجهة الغرب) وهذه المواجهة إنما هى من نتاج الإعلام الغربى من قبل أن يصدر أسامة ابن لادن بياناته ومن قبل أن تبث قناة الجزيرة أحاديثه التى اتخذها برنارد لويس وأمثاله ذريعة لتأكيد هذه المواجهة، ومبررا لاستعداء الغرب على الإسلام والمسلمين، والغرب يعلم جيدا من هم هؤلاء الذين (اختطفوا الإسلام)وتستروا بعباءته لارتكاب جرائمهم ولا يمكن أن تنسب أعمالهم إلى الإسلام كدين سماوى.

وهناك قلة من الكتاب الغربيين يكشفون أوراقهم، ويخلعون الأقنعة، ويناقشون الصراع أو الحرب الموجهة ضد الإسلام والمسلمين على أنها ليست فى حقيقتها حرب عقائد وإن كانت تقدم للرأى العام الغربى على أنها كذلك

ولكنها حرب مصالح، ويعترفون بأن العداء لأمريكا فى العالم الإسلامى يرجع إلى ما يلمسه المسلمون من انحياز أمريكا ضد حقوق ومصالح المسلمين، بينما تمضى أغلبية الكتاب والمعلقين فى الغرب على اتهام الإسلام ذاته واتهام المسلمين وحدهم بما وصل إليه الحال فى العلاقات بين المسلمين والغرب من توجس وحساسية.. فكاتب مثل مارفين أوت نشر فى صحيفة هيرالد تريبيون الأمريكية مقالة يوم ٩ يناير ٢٠٠٢ بعنوان (لماذا كل هذه الكراهية تجاهنا؟ إنها بسبب فشلهم فى مواكبة الحداثة)يقول فيها أن هناك إجابات واضحة للتساؤل عن كراهية العرب والمسلمين لأمريكا، وهذه الإجابات تشمل سياسة الولايات المتحدة تجاه الصراع الفلسطينى الإسرائيلى، والتواجد الأمريكى البارز فى الشرق الأوسط. ولكن مثل هذه التفسيرات ليست وحدها السبب الرئيسى للشعور بالكراهية، ولذلك فلو أن أمريكا غيرت سياستها فى القضية الفلسطينية، وقللت تواجدها فى الشرق الأوسط، فلن يؤدى ذلك إلى زوال الكراهية والتوتر بين الغرب والعالم الإسلامى، والعالم العربى، لأن جذور الغضب العربى والإسلامى تجاه الغرب ترجع فى الأساس إلى الفشل التاريخى للعالم الإسلامى فى مواكبة الحداثة. والحداثة هى نتاج منظومة معقدة من المعرفة، والقيم، والسلوك، والعادات، ظهرت فى أوروبا خلال عصر النهضة فى القرن السادس عشر، وأصبحت موجة عالمية كاسحة اتخذت أمريكا مركزا لها.

ويقول مارفين أوت: إن الحداثة فرضت على المجتمعات غير الغربية اختيارا صعبا، وكان عليها أن تختار التوافق مع قدرات الغرب، وامتلاك هذه القدرات، أو أن تختار التبعية ! وقد تأثر تاريخ التنمية الاقتصادية فى آسيا وأفريقيا بهذا الصراع الأساسى، وتحقق النجاح فى آسيا وخاصة فى الصين، وكوريا، واليابان، وعموما فى جنوب شرق آسيا، وكان نجاح آسيا بسبب قدرتها على حل شفرة الحداثة. والحداثة هى المرحلة الأخيرة من التطور الذى شهده العالم عبر تاريخه الطويل. وقد أصبح جزء كبير من دول آسيا يسير الآن فى طريق الحداثة، أما العالم الإسلامى فلم يستطع أن يحقق ذلك بالرغم من أنه يمثل قطاعا كبيرا من المجتمع العالمى. وإن كانت بعض الدول الإسلامية قد حققت درجة من النجاح

فى مواكبة الحداثة مثل ماليزيا، وتركيا، وإندونيسيا، وبنجلاديش، ودولة إسلامية أخرى لديها إمكانية مواكبة الحداثة هى إيران، وأن الأمر الذى يلفت النظر هو أن هذه الدول الإسلامية التى نجحت فى السير على طريق الحداثة ليست ضمن الدول العربية، أما المساحة الشاسعة التى تشغلها الدول العربية من الخليج إلى جبل طارق فمازالت فى جوهرها مجتمعات غير متقدمة. ولا يكفى استخدام قياس التقدم بمستوى الدخل، والا فسوف تبدو الدويلات والممالك الغنية بالبترول متقدمة، وهذا غير صحيح، لأنه بدون البترول ستصبح هذه الدول ضمن قائمة أفقر الدول وأكثرها تخلفا، وإذا نفد البترول غدا فسوف تهوى هذه الدول سريعا إلى اقتصاد يقوم على النخيل والجمال والصحراء ! وقد يكون هذا التصور قاسيا، ولكن حقيقته تكمن فى هذا الخطر الإرهابى الذى يهدد الغرب .

ويضيف أن الحداثة تستمد كيانها ويتم قياسها بناء على مجموعة من القيم والأفكار مثل الاعتماد على العلم، وعلى المنهج العلمى التجريبى، والعقلانية، والكفاءة، وعندما تسود هذه القيم لابد أن ينتج عنها نظام سياسى واقتصادى واجتماعى متقدم. وفى الولايات المتحدة فإن الأساس الذى تستند إليه السلطة هو المؤسسات القوية المتميزة .. والشركات العملاقة، التى ليس فى العالم الإسلامى مثيل لها أو قريب منها .. فليس فى هذا العالم شىء قريب ولو من بعيد لمؤسسة مايكروسوفت للبرمجيات، أو المؤسسة الطبية العملاقة (جونس هوبكنز ميديكال)، أو شىء يشبه من قريب أو من بعيد القوة الجوية الأمريكية، بينما يوجد فى كوريا مثلا عشرات الشركات الكبرى المتعددة الجنسيات مثل (هيونداى) و (دايو) ناهيك عما فى اليابان، ولا يوجد فى العالم الإسلامى كله شركة واحدة بحجم واحدة من هذه الشركات.. والعلم والتكنولوجيا هما أساس هذه المشروعات، والعالم العربى مازال بعيدا عن امتلاك العلم والتكنولوجيا!

ويقول مارفين أوت: صحيح أن العالم الإسلامى أرسى فى القرن السابع عشر مبادئ العلوم والرياضيات، واستمر على ذلك خمسين عاما، ولكن الأمر المحير

الذى لا يستطيع أحد الإجابة عنه هو: لماذا - بعد كل هذا التقدم - يعارض الإسلام العلم الحديث، حتى إن جميع العلماء المسلمين لا يمثلون سوى نسبة ١٪ فقط من جملة العلماء فى العالم. وفى الوقت نفسه تزخر إسرائيل وحدها بعدد من العلماء يفوق مجموع العلماء فى كل العالم الإسلامى. ومن الناحية السياسية فإن العالم الإسلامى يجد صعوبة كبيرة جدا فى تفهم أو ممارسة الديمقراطية، ومرة أخرى نجد أن الدول الإسلامية الديمقراطية، أو حتى شبه الديمقراطية، دولا غير عربية، إذ إن شكل النظام السياسى العربى من المغرب حتى العراق هو الشكل الأوتوقراطى .. ومقاومة العقل العلمانى فى العالم الإسلامى يظهر فى رفض الديمقراطية، ووضع المرأة كتابع للرجل، ويحدث ذلك باسم الإسلام، وبالاستناد إلى أن الإسلام يفرض الطاعة للحاكم والتسليم لله. ولذلك فإنه فى الوقت الذى أتاح فيه الإصلاح والتنوير فى الغرب فرصة إيجاد مساحة للعلم والتجريب السياسى والاقتصادى، انزلق العالم الإسلامى إلى مرحلة أصبح فيها العقل أقرب إلى المكانة التى كان عليها فى أوروبا عندما كانت سجينة فى ظلام العصور الوسطى. وعلى أية حال فإن المجتمعات التى ترفض قيم الحداثة سوف يظل مكتوبا عليها أن تبقى على ما هى عليه من الضعف والتخلف، وكذلك فإن الشعوب المتغطرسة التى تعيش أسيرة لأمجادها التاريخية فى الماضى، فإن النتيجة الحتمية التى ستصل إليها وتبقى فيها هى فقط الشعور بالغضب والإحباط الذى يتحول إلى عداوة مقاتلة عندما تجد بطلا متحدثا باسمها مثل أسامة بن لادن، ومن الممكن القضاء على ابن لادن، ولكن الخطر لن يزول حقيقة إلا عندما يجد الإسلام طريقه الصحيح، ويتخذ القرار لنفسه بنفسه، ويكتشف مفاتيح الوصول إلى الحداثة، ويخرج من عصر القرون الوسطى !..

باختصار فإن مارفين أوت يردد الفكرة الراسخة فى الغرب بأن المسلمين والعرب متخلفون وجهلاء وفقراء، وهذا هو السبب الوحيد الذى يجعلهم يكرهون الغرب لأنه متقدم وقوى وغنى. كما يردد الفكرة المحببة لدى الباحثين والمشتغلين بالإعلام فى الغرب من أن الإسلام هو العقبة التى تعوق تقدم المسلمين.

أليست هذه هى صناعة العداء ؟.

وماذا نقول أيضاً عما كتبه فيجل أولف ماتيور فى صحيفة فرانكفورتر الجماينة أشهر الصحف الألمانية فى مقال يوم ١٦ نوفمبر ٢٠٠١ بعنوان (انتهاكات حقوق الإنسان موجودة فى كل مكان، ولكنها صارخة فى العالم الإسلامى) وتحدث فيه عن الدول الإسلامية دولة دولة دون أن يستثنى منها أحداً، وقال فيه: إن دراسة الأوضاع فيها جميعاً تكشف أنها حليفة مهمة للغرب، وفى بعضها استقرار اقتصادى جيد نسبياً، ومعظمها لم توقع على معاهدات حقوق الإنسان ونظم الحكم فيها يمكن أن توصف بأنها ديكتاتورية، وفيها قيود حرية الصحافة وحرية الاجتماع، ويحظر فيها توجيه النقد إلى الحكام، وكل السلطات فى يد الحكام فى الواقع. وفى بعض الدول الإسلامية تخضع الصحافة للرقابة، وتمنع بعض الصحف الأجنبية. وفيها دساتير تنص على مبادئ مهمة مثل استقلال القضاء، وافتراض البراءة فى المتهم، والحق فى الدفاع. ولكن هذه المبادئ المكتوبة لا تنفذ فى عدد من الدول الإسلامية فضلا عن التوسع فى عقوبة الإعدام. وفى بعض الدول الإسلامية أعطيت المرأة الحق فى التصويت فى الانتخابات، وفى بعضها أعطيت الحق فى الترشيح للمجالس النيابية، وفى بعضها تتولى المرأة وظائف مهمة، لكن ذلك يتم فى حدود ضيقة لا يمكن تجاوزها. وفى بعض الدول الإسلامية تخضع القوانين وأنظمة الحكم للتفسير المتشدد للقرآن، ويسيطر المتشددون على الأمور بعقلية المذاهب المتشددة التى كانت موجودة فى القرن الثامن عشر، ويحظر فى بعض الدول الإسلامية أن ترتاد المرأة المطاعم والأماكن العامة.

ويقول الكاتب الألمانى: إن من المحظورات فى العالم الإسلامى أن يمارس المواطنون حقهم فى إبداء رأى معارض لما يقرره الحكام، وبعض الدول الإسلامية ليس فيها أحزاب سياسية، أو منابر للمعارضة، ويخضع القضاء الجنائى للتوجيه من السلطات الحاكمة تبعاً للظروف. وفى بعض الدول الإسلامية يتم تنفيذ عقوبة الإعدام بقطع الرقبة بالسيف أمام الجماهير. وليس من الممكن معرفة أعداد المعتقلين السياسيين فى أية دولة من الدول الإسلامية، وبعض هذه الدول لا يستطيع الصحفيون الأجانب الدخول أو التجول فيها أو لقاء المواطنين بحرية، وتتلخص سياسة عدد كبير من الدول الإسلامية فى عبارة واحدة (السعى دائما إلى

الاحتفاظ بالسلطة). وفى إحدى الدول الإسلامية اكتشفت منظمات حقوق الإنسان أن سجن النساء لا توجد فيه مرافق صحية ولذلك تنتشر فيه الأوبئة، ويعتبر خروج المرأة بدون النقاب جريمة جنائية عقوبتها الجلد، فضلا عن خضوع المجتمعات الإسلامية للمراقبة طول الوقت من خلال أجهزة متعددة، وأجهزة الإعلام فيها خاضعة للحكومات ويستحيل إبداء رأى مختلف عما تقرره الحكومات، وممارسة التعذيب أمر مألوف فى معظم الدول الإسلامية.

ويقول الكاتب الألمانى أيضاً أن الفساد ينتشر فى الدول الإسلامية، وأجهزة الشرطة والقضاء وهذا لا يتفق مع المعايير الموجودة فى أية دولة دستورية من دول الغرب المتقدمة، ومن يخرج على القواعد الراسخة يجد حسابا عسيراً.

وما ينشر للإساءة إلى الإسلام فى الغرب أكثر من ذلك بكثير، ومن ذلك مقال ايريش فولات فى عدد مجلة دير شبيجل أكبر المجلات الألمانية يوم ٢ يونيو ٢٠٠١ تحت عنوان (من كان محمد؟.. وما هو سر الإسلام؟).. وفيه أن الخيال الواسع للرواة وصف النبى محمدا ﷺ بأنه كان ضعيفا تجاه العطور والنساء، وقد رأى أهل مكة أنه قد أصابه (مس من الشيطان) وأن رسالته (أضغاث أحلام) وكان أكثر أتباعه من الطبقة الدنيا، وظل فى مكة ١٢ عاما يدعو إلى الإسلام فلم يؤمن به سوى بضع عشرات فاضطر إلى الهجرة فى يوم ١٦ يوليو عام ٦٢٢ ميلادية، وكانت الهجرة مرحلة جديدة فى تاريخ العالم، إذ بدأ صعود محمد صلى الله عليه وسلم كالنيازك، حيث أسس فى المدينة دعامة قوية للإسلام ووضع قواعد إمبراطورية عالمية، وكانت المدينة تعانى من الصراعات بين قبيلتين عربيتين تمثلان نصف السكان، ولذلك كانت المدينة تبحث عن شخص من خارجها يوحد كلمتها تحت لواء أية رسالة، ولهذا كانوا على استعداد لتقبل دعوة محمد الذى أصبح الحكم بين المتنازعين، ووضع ميثاقا للتضامن بين القبائل لإقامة مجتمع موحد، وفى هذا الميثاق دعا إلى ترك الربا والقمار والخمر، وحدد نظام تقسيم الميراث من يأخذ النصف ومن يأخذ الثلثين ومن يأخذ الثلث فقط، وأوجب على التاجر أن يزن بضاعته بأمانة، وفرض القصاص على السارق بقطع يده، ونظم كل مجالات الحياة من تنظيف الأسنان وغسل اليدين إلى المعاشرة الزوجية، فالله فى دينه يهتم بكل الأمور سواء كانت كبيرة أم صغيرة، وفى هذا

يختلف عن المسيح الذى كان مبدؤه كما قال إنجيل يوحنا: (مملكتى ليست فى هذا العالم) أما فى الإسلام فلا يوجد منذ البداية هذا الفصل بين الدين والدنيا.

وفى هذا المقال أيضاً: إن محمدا ﷺ حسَّن وضع الفقراء، ولكنه لم يفكر مطلقا فى إلغاء نظام الرق، ومن المزعج حقا موقفه المتأرجح من العنف، ولذلك عندما قام بترسيخ مكانته فى المدينة بدأ فى الغزوات حتى إنه فى إحدى المرات أمر المسلمين بشن الهجوم على قافلة يملكها أهل مكة وكان ذلك فى أَحَد الأشهر الحرم التى يُحرَّم فيها القتال، وبذلك خرق السلام المفروض فى تلك الأشهر، وبررت الآية ٢١٧ من سورة البقرة هذا الخرق وأقرت القتال فى الأشهر الحرم، وحين انتصر المسلمون فى غزوة بدر اعتبر المسلمون هذا النصر من الله، ولكن عندما هاجمهم أهل مكة للانتقام فى غزوة الخندق لجئوا إلى تكتيك دنيوى هو حفر خندق واسع حول المدينة فلم تتمكن خيول الأعداء من اجتيازه، ولم يقل المسلمون إن هذا النصر من الله !.

ويقول المقال: إن محمدا ﷺ عندما تأهب لغزو مكة كان عليه أن يعالج مشكلة اليهود فى المدينة، وكان يكن لهم الاحترام، ويتوقع منهم أن يعترفوا بالإسلام ويعتبروه تطورا واستمرارا لعقيدتهم، ولكن اليهود لم يعترفوا بمحمد نبيا، وخرقوا العهد الذى كان قائماً بينهم وبينه، وجاء تغيير قبلة المسلمين من القدس إلى مكة صدمة لأتباعه. ويقول المقال: (وادعى محمد نسبه إلى الأب الأول إبراهيم، بأن أعلن أن إبراهيم كان المسلم الأول، وزعم محمد أن إبراهيم أحضر قديماً الحجر الأسود إلى الكعبة وصلى فيها. وبذلك فالإسلام ليس المكمل للأديان ولكنه أصل كل الأديان التى تقوم على مبدأ التوحيد).. ويستشهد المقال بقول عالم الدراسات الإسلامية الهولندى سنوك هورجرويه، بأن الإسلام أكثر الإبداعات الدينية عبقرية على الاطلاق، كما يزعم المقال أن محمدا ﷺ نجا بصعوبة من محاولة لقتله قام بها شخص يهودى، وانتقم لذلك من اليهود بطردهم من المدينة، وبعد ذلك تمتع اليهود مع المسيحيين بامتيازات باعتبارهم (أهل الكتاب) ويختلف وضعهم عن وضع المشركين الكفار، وأصبح لهم الحق فى العيش بحرية فى المجتمعات التى يحميها المسلمون نظير ضريبة على كل فرد منهم تسمى (الجزية) وعندما بدأ الانحلال فى مجتمع مكة يتسبب فى تشتت

شمل العشائر والقبائل (وساد نظام القيم التقليدى بما فيها من الانحلال والفساد، وتدهور حال الأغنياء وأصبح العامة معدمين، دخل جيش المسلمين مكة بدون قتال بقيادة محمد ﷺ ليملأ هذا الفراغ الروحى والسياسى وبذلك فتح مكة بدون قتال)!.

ويقول المقال: إن محمدا ﷺ حطم الأصنام فى ساحة الكعبة، وجعلها مكانا لعبادة الله الواحد، وتعامل بتسامح ورحمة متناهية مع أعدائه السابقين ودعا إلى الإخاء بدلا من الانتقام، وكان يفضل الدبلوماسية لنشر تعاليم دينه، ويعتبر الزواج ضمن هذه السياسة، فقد تزوج ١٣ زوجة أكثرهن كن أرامل من أجل أن يربط أصولا أخرى إلى نسبه وكانت الجوارى يمثلن بالنسبة له عبئاً إلى جانب المتعة، فكان يئن تحت وطأة مكائد زوجاته، فلقد كان رجلا ولم يكن ملاكا!.

ويقول المقال: إن محمدا ﷺ توفى يوم ٦ يونيو عام ٦٣٢ ميلادية تاركا تسع زوجات وقفن على قبره فى المدينة، وفى ساعاته الأخيرة كان يرى المستقبل وحذر من حدوث انقسامات بين أتباعه فقال: لقد تفرق اليهود إلى ٧١ فرقة، والمسيحيون إلى ٧٢ فرقة، أما أنتم فسوف تتفرقون إلى ٧٣ فرقة، وانتشر الإسلام بعد ذلك بسرعة، ولكن تحققت نبوءة محمد ﷺ فتفرق المسلمون وتنازعوا فيما بينهم، ولم يمر ثلاثون عاماً على وفاته حتى وقع الشقاق الكبير حيث رأت جماعة من المؤمنين أن علىً بن أبى طالب، ابن عم النبى، هو الوحيد الذى يستحق أن يكون خليفة له، وحدث الانقسام بعد مقتل الإمام على عام ٦٦١ ميلادية بين شيعته وغالبية المسلمين، وينتظر معظم هؤلاء الشيعة إلى اليوم عودة الإمام الثانى عشر الذى اختفى فى القرن التاسع بطريقة غامضة، وهؤلاء هم الذين يشعرون بأنهم مغلوبون، ويؤمنون بالاستشهاد وتعذيب الذات بطريقة أقرب إلى الهوس، وفى إيران مازال رجال الدين إلى اليوم يتصرفون على أنهم نواب للإمام الثانى عشر وأشهرهم زعيم الثورة آية الله خومينى، وإن كان الشيعة يتخذون القرآن مرجعاً لهم مثل أهل السنة، إلا أنهم يرفضون الأحاديث التى يستند إليها أغلبية أهل السنة، ويتهم الشيعة كثيرين من الصحابة بالتحريف، ويتم تداول حوالى نصف مليون حديث عبارة عن خليط من الروايات

المشكوك فى صحتها، والتفسيرات المتسرعة نسبيا للأحاديث، ولم يتم إقرار سوى تسعة آلاف حديث منها بشكل عام بالرغم من أنها تتضمن بعض الأخطاء! ، ويسمح أهل السنة بانتقاد تلك الأحاديث فى نطاق ضيق، ولكنهم متفقون على القرآن الذى يشمل ١١٤ سورة بها ٦٢٣٦ آية، ويذكر مكان نزول كل آية منها فى مكة أو المدينة، ولكن المصحف ليس مرتبا ترتيبا زمنياً بحسب النزول، ولكنه مرتب بطريقة أخرى، والإسلام دين بدون خطايا موروثة، بدون ثالوث، بدون بابا، بدون وسطاء، وبدون ابن لله على الأرض. وفى القرآن، آيات تؤيد مبادئ من الإنجيل.

ويقول: سواء كان القرآن هو كلام الله، أم من عمل إنسان عبقرى، فإن الأفكار والعقول تختلف اليوم عندما يتعلق بتفسير موقف الإسلام من المرأة والحرب. ويقول البعض فى الغرب إن المبادئ التى جاء بها القرآن غير إنسانية، بينما يقول البعض الآخر: إن المبادئ فى القرآن تقدمية. وإن كان وزير الأوقاف المصرى حمدى زقزوق قال فى حديث مع مجلة دير شبيجل أن القرآن لم يذكر أبدا أن النساء ليس لهن الحق فى التعليم والعمل، وأن القرآن يرفض كل أنواع الظلم الاجتماعى الأخرى الواقعة على المرأة، مثل القيود التى كان يفرضها نظام حكم طالبان فى أفغانستان. إلا أن مقال ايريش فولات يعود مرة أخرى إلى القول بأن الإسلام يؤسس مجتمع الرجال، وربما يكون قد فكر فى قضية عدم المساواة بين الرجل والمرأة ولكنه لم يتمكن من أن يتخطاها، لأن القرآن وضع قاعدة (الرجال قوامون على النساء)وإذا فعلت المرأة ما يخالف أمر زوجها يبيح القرآن للزوج أن يضرب الزوجة ويهجرها فى الفراش .!

يقول أيضا: إن الحجاب فرض على المرأة المسلمة من أجل حمايتها ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ (الأحزاب – ٥٩) وقد تسببت الحروب فى عهد النبى (ﷺ) فى وقوع العديد من النساء فى الأسر، وعرضهن للبيع فى سوق الجوارى، كما فقد كثير من النساء أزواجهن فى الحروب، وقد حرم القرآن البغاء، وسمح بالزواج بأكثر من واحدة بحيث لا يزيد العدد على أربع زوجات لكل رجل.

هل يحتاج الأمر إلى شرح كيف يشوهون الإسلام فى عيون الرأى العام فى الدول الغربية، وكيف يشوهون تاريخ الإسلام، وكيف يشوهون صورة الرسول ﷺ .؟

والورقة الرابحة التى يستخدمونها لإثارة الكراهية والعداء للإسلام هى الوضع المهين للمرأة فى الإسلام إلى حد حرمان المرأة من الحق فى الحياة، ومن الحرية التى هى حق لكل إنسان، كما قالت سوزان ساتشر فى مقالها فى صحيفة هيرالد تريبيون يوم ١٩ ديسمبر ٢٠٠١ بعنوان (النساء المسلمات يطالبن بالحق فى الحياة)وقالت فيه: إن المبادئ النظرية للإسلام تقرر الحقوق للمرأة، ولكن فى معظم الدول الإسلامية الرجل هو القانون، وهو المفسر للشريعة، وهو الذى يحدد الإطار الذى يجب أن تتحرك فيه المرأة. إذ يستطيع الرجل منع زوجته من السفر مستندا إلى حقه الشرعى فى ذلك، ويستطيع الأب أن يزوج ابنته رغما عنها، ويتحتم عليها بالشرع والقانون طاعته، ويستطيع الزوج حبس زوجته والعيش معها فى حياة خالية من الحب فيما عدا بعض حالات استثنائية، والزوجة مقيدة لا تستطيع الفكاك من قيود الزوجية كأنها فى سجن أما الرجل فيستطيع تحرير نفسه من الزوجية بمجرد التلفظ بكلمة واحدة: الطلاق!

وإن كان زمن حبس المرأة فى البيت طَوَال عمرها قد انتهى فى بعض الدول الإسلامية، إلا أن معظم المجتمعات الإسلامية مصممة على أن الحداثة تتعارض مع الإسلام، والنساء يطالبن بتعديل القوانين والنظم التى تفرض على المرأة أوضاع التبعية للرجل، لكن هذه الدعوات تواجه بالمعارضة باعتبارها مخالفة لأحكام شريعة الإسلام. هذه القيود من موروثات المجتمعات الشرقية، ومن تفسيرات القرآن والسنّة، ومن شيوع الاتجاه إلى رفض الثقافة العالمية العصرية والانكفاء على ثقافة العصور الوسطى. فى ظل هذه العوامل يبدو الإسلام على أنه عائق للتقدم.

تقول الكاتبة الأمريكية: إن الشريعة الإسلامية تفرض القوانين التى جعلت المجتمعات الإسلامية مجتمعات للرجال، ومجتمعات أبوية، كما هو الحال فى القرون الوسطى، وهناك حركة نسائية تطالب بحقوق الإنسان للمرأة ولكن هذه

الحركة تواجه صعوبات دينية وقانونية واجتماعية، وتواجه معركة ضارية من المتعصبين، مع أن النساء المسلمات يؤكدن دائما أنهن لا يردن المساواة بالصورة التى تمارس بها المرأة حريتها فى الغرب، ولكنهن يردن المساواة فى إطار الشريعة ووفقا للتفسير المعتدل للنصوص القرآنية. ومع ذلك فإن المرأة التى تطالب بذلك تتهم بأنها عدو للإسلام وعميلة من عملاء الغرب. والحركات الإسلامية المتشددة تجعل من موضوع المرأة موضوعا للصراع على السلطة مع الحكام المسلمين المعتدلين. وقد رفض الإسلاميون فى البرلمان الكويتى منح المرأة الحق فى التصويت فقط وليس فى الترشيح فى الانتخابات، وقاوم الإسلاميون اتجاه الحكومة فى الأردن لإنهاء حق الرجال فى قتل النساء فى قضايا الشرف، وفى المغرب انقسم المجتمع عندما اقترحت الحكومة إلغاء التفرقة فى القوانين بين حقوق المرأة وحقوق الرجل. وفى عام ٢٠٠٠ سار أكثر من ٤٠٠ ألف شخص فى مظاهرة عامة للتعبير عن رفضهم لذلك الاتجاه باعتباره اعتداء على مبادئ الشريعة الإسلامية.

والأكثر إثارة ما حدث من جدل عنيف تحول إلى معركة أكثر من أن يكون حوارا عندما طُرِحَ مشروعٌ لتعديل قانون الأحوال الشخصية لإعطاء المرأة الحق فى الطلاق بدلاً من أن يفرض عليها العيش بالإكراه مع رجل لا تطيقه، كذلك قاوم التيار الإسلامى فى المغرب مشروع قانون لرفع سن زواج الفتيات إلى ١٨ سنة بعد أن كان ١٥ سنة، ومنع تعدد الزوجات فى بعض الأحوال، والسماح للمرأة بعد الطلاق بحضانة أطفالها حتى لو تزوجت برجل آخر، وحق المرأة فى الاحتفاظ بالهدايا التى قدمها لها الزوج بدلاً من القانون الحالى الذى لا يعطيها الحق فى استرداد إلا ما كانت تملكه قبل الزواج من ممتلكات شخصية. ونظمت الجماعة الإسلامية حملة لتوجيه الاتهام لمؤيدى هذا المشروع بأنهم عملاء يعملون على هدم العالم الإسلامى وتدمير ثقافته ونشر الثقافة والبدع الغربية، وأعلنت هذه الجماعة أنها هى (خط الدفاع) الوحيد عن الإسلام عند غزو الثقافة والأفكار الأجنبية. وقالت ابنة زعيم هذه الجماعة نحن نرفض هذا المشروع لمجرد أنه مقدم من نساء متأثرات بالثقافة والعقلية الغربية ، والقانون فى المغرب لا يعطى المرأة الحق فى الطلاق إلا برفع دعوى أمام المحكمة وقبول دفع أى مبلغ يطلبه

الزوج مقابل قبوله للطلاق! وقال زعيم الجماعة الإسلامية: إذا وضعنا نظاما مثل الغرب بأن تأخذ الزوجة نصف ما يملكه الزوج عند الطلاق فلماذا تبقى معه؟

وتقول الكاتبة: إن المسلمين يرددون أن النبى ﷺ أمر المسلمين بمعاملة المرأة باحترام، ولكن الذى يحدث أن هذا الاحترام تحول إلى السيطرة والاستعباد.

هل رأيت كيف ينظرون، وكيف يتحدثون عن الإسلام؟

وفى صحيفة هيرالد تريبيون أيضا وفى يوم ١٠ يناير ٢٠٠٢ مقال بعنوان: (ليس صراع الحضارات بل صراع المصالح) بقلم أميتاب آكاريا قال فيه: إن انهيار نظام طالبان فى أفغانستان بالقوة العسكرية الأمريكية يعنى هزيمة النظرية التى ظهرت من رماد الحرب الباردة عن صراع الحضارات، وكانت هجمات ١١ سبتمبر على الولايات المتحدة أول اختبار لهذه النظرية، وتأكدت بعد أن استخدم الرئيس الأمريكى بوش تعبير (الحملة الصليبية) بما ينطوى عليه من إيحاء بأن هذه حرب مسيحية ضد المسلمين. وكذلك أعلن الإرهابيون أن الهجمات التى يقومون بها هى حرب إسلامية ضد المسيحيين واليهود، ومع ذلك فقد ثبت من رد الفعل لدى الحكومات والشعوب فى العالم أن هذا ليس صراعا بين الحضارات، ولكنه صراع على المصالح، أما قضية الحضارات فلم يكن لها إلا دور هامشى.

فقد أدانت الدول الإسلامية جميعها هذه الهجمات الإرهابية، وأقرت حق الولايات المتحدة فى الانتقام من طالبان وعرض البعض منها تقديم مساعدات مالية وعسكرية، وأدانت ابن لادن الدول الإسلامية من السعودية حتى باكستان، ومن إيران إلى إندونيسيا، وأعلن الرئيس الباكستانى ومساعدوه رفضهم لهؤلاء الإرهابيين لأنهم يقدمون صورة سيئة عن الإسلام، بالرغم من رعاية باكستان لطالبان على مدى سنوات طويلة، وبالرغم من الغضب الشديد الذى أبداه المتطرفون فى باكستان، عرضت باكستان تقديم المساعدات للقوات الأمريكية المقاتلة ضد طالبان والقاعدة. وهذا ما فعلته ميجاواتى سوكارنو رئيسة إندونيسيا.

ويقول المقال: إن إيران كذلك، التى ظلت عشرات السنين تقود الحملات الإسلامية الثورية ضد الولايات المتحدة أعلنت رفضها لحركة طالبان، لأن

إيران فى ظل الحكم الإصلاحى الذى يقوده محمد خاتمى وجدت فى الحرب الأمريكية على طالبان فرصة للتخلص من نظام معاد لها كان قائما على حدودها، وقدمت كل الدول الإسلامية المصالح، وانضمت إلى المبادئ الدولية الجديدة، وتراجعت لديها العاطفة والهوية الدينية. والثقافية التى كانت تقول إنها تتخطى الحدود.. وعلى سبيل المثال فإن باكستان كانت محتاجة إلى مساندة أمريكا وإقرارها للنظام العسكرى الحاكم فيها، وإندونيسيا كان تأييدها بالغ الأهمية لأمريكا لإعطاء الشرعية للحملة العسكرية الأمريكية ضد الإرهاب فى العالم، فإندونيسيا أكبر دول العالم الإسلامى، وفى مقابل هذا الموقف حصلت من أمريكا على مساعدات اقتصادية وسياسية.

وفى ماليزيا – كما فى إندونيسيا – كانت الحرب على الإرهاب فرصة للحكومة فيهما لقمع المتطرفين الإسلاميين الذين كانوا فى موقف التحدى الدائم للحكومتين، وسببا فى إثارة الفوضى والشغب. وهكذا تقبلت الدول الإسلامية حرب الولايات المتحدة باعتبارها إقرارا بحق كل دولة فى الدفاع عن نفسها، دون أن يفكر أحد طبعا فى أن يكون هذا الحق لطالبان أيضا.. وعندما خُيرت الدول الإسلامية بين الانضمام إلى أمريكا أو الانضمام إلى الإرهابيين، وقفت دول العالم فى جبهة واحدة لم يسبق لها مثيل ضد الإرهابيين، وذلك بالرغم من التحفظات التى تبديها الحكومات والشعوب الإسلامية بشأن السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط، والقلق الذى يسود العالم الإسلامى بسبب تساقط القتلى المدنيين فى فلسطين بعد وصول شارون إلى الحكم. وفى أفغانستان فى الحرب الأمريكية فى أفغانستان لقتل أسامه بن لادن والظواهرى والملا محمد عمر، ويضاف إلى ذلك التخوف من الهيمنة العسكرية والسياسية والاقتصادية الأمريكية على العالم.

ويخلص المقال إلى أن نظرية صراع الحضارات لم تكن هى المحرك للدول على المستوى الداخلى أو على المسرح الدولى، وأدان الزعماء المسلمون الهجمات الإرهابية باعتبارها عملا يتعارض مع الإسلام، ولم يتحقق ما كان يقال من أن الدول الإسلامية التى أيدت أمريكا فى حربها على الإرهاب فى أى مكان سوف تعانى من التمزق الداخلى والمنازعات الدينية والعرقية، فلم يحدث شىء من ذلك.. ففى باكستان استطاع الجنرال برويز مشرف التصرف بجرأة ضد المتطرفين

وفشلت المظاهرات الإسلامية المعارضة لأمريكا، كما فشلت الجماعات الإسلامية في إندونيسيا في محاولتها حشد الجماهير لمعارضة الحرب الأمريكية، وفي ماليزيا توقف رئيس الوزراء ماهاتير محمد عن إلقاء الخطب المعارضة للهيمنة الأمريكية، ومنع المجاهدين في ماليزيا من السفر إلى أفغانستان للقتال في صفوف طالبان.

وينتهي المقال إلى أن ردود الفعل الدولية تجاه الهجمات الإرهابية في ١١ سبتمبر تدل على أن عنصر الدين وعنصر الحضارة لا يمكن أن يكونا البديل عن المصالح باعتبارها هي الدوافع الأساسية التي تحرك الدول وتحكم العلاقات الدولية، ويمكن في ضوء هذه الحقيقة فهم موقف الدول الإسلامية في رفض نداءات طالبان وابن لادن للحكومات والشعوب الإسلامية لتأييده والوقوف معه.. لأن المصالح كانت هي الدافع لتحديد موقف الدول الإسلامية، كما كانت الدافع لمواقف الدول الأوربية، وبالطبع كانت هي الدافع للحرب الأمريكية.

ومعنى ذلك أن كل نظرية تقال مثل صراع الحضارات وغيرها ليست إلا غطاء للتمويه وإخفاء الأسباب الحقيقية لما يجرى في العالم من حروب وصراعات في القرن الحادى والعشرين.